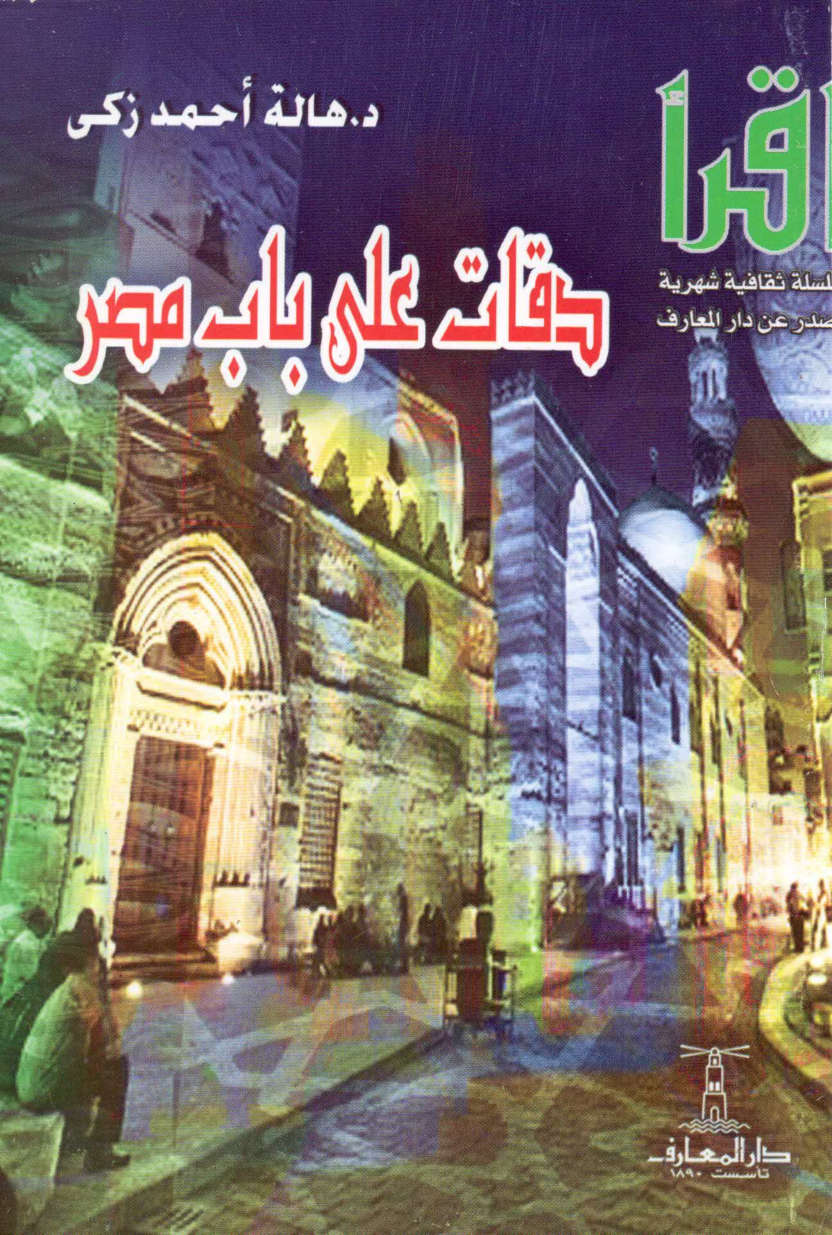


اقرأ
لسلة ثقافية شهرية
صدر عن دار المعارف
د.هالة أحمد زكى
دقات على باب مصر
دار المعارف
تاسست ١٨٩٠

هذا كتاب يضم لقطات تاريخية وجغرافية طريفة من أحداث تاريخ مصر الدينى والسياسى والثقافى..وقد رجعت الكاتبة إلى عدد من المراجع الموثوقة لتستمد منها مادتها ... وتعيد صياغتها من جديد فى صورة حكايات وحواديت يستمتع بها الكبار والصغار... تتميز بالدقة والرقة والعذوبة والسرد الممتع الذى يجعل القارئ يعيش مراحل هذا التاريخ وكأنه مشارك فيها..راصد لها.

ونلاحظ أن الكاتبة تهدف من كتابها هذا إلى تذكير القارئ المعاصر بتاريخه وشخصيات وآثار مصر التى كونت هذه الشخصية المصرية العريقة التى صمدت فى وجه الرياح العاتية على مر التاريخ.



٤٠٨٤٨١/٠١



تصميم الغلاف : هاجر محمود



سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف

[٧٧٨]





رئيس مجلس الإدارة

د. حسن أبو طالب

سلسلة اقرأ

صدر العدد

الأول سنة ١٩٤٣

تم التنفيذ في مطابع دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - جمهورية مصر العربية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

زكي، هالة احمد

دقات على باب مصر / هالة احمد زكي - ط١ -

القاهرة: دار المعارف، ٢٠١٤.

٢٢٨ ص ؛ ١٧,٥ سم - (سلسلة اقرأ، ٧٧٨)

تدمك : ١ - ٨٠١٧ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - مصر - تاريخ

٢ - مصر الاحوال السياسية

٣ - مصر الاحوال الثقافية

(أ) العنوان

ديوى ٩٦٢

رقم الإيداع ٢١٠٢٦ / ٢٠١٤ ١/٢٠١٤/٣٨

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

د. هالة أحمد زكى

دقات على باب مصر

الطبعة الأولى

٢٠١٤م



اقرأ

ان الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين



أحلام شهرزاد – العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

الإهداء

إلى أبى وأمى... إليهما وقد دخلا مصر من باب من جاءوا لينتموا إلى عشق هذه الأرض المصرية المباركة.

إلى كل من ساعدنى وكان بمثابة الكلمة الطيبة صاحبة الأصل الثابت خلال مشـوار حياتى إليهم جميعا إلى اسـاتذتى فى كل مراحل التعليم والتعلـم..إلى نور. سـعاد فصيح. سميرة جورج. قمـر مبارك. إبراهيم همام. بثينة. مرسـى سـعد الديـن. ليلى جلال. فوزية الصدر. سـارة رشوان.

إلى أسـاتذتى فى الصحافة والثقافة المصرية : د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشـاطئ). أحمد نافع. عبد الوهـاب مطاوع. صلاح حافظ. فاروق جويـدة. د/ إسماعيـل سـراج الديـن. وجـدى رياض. محمد عيسـى الشرقاوى. كامل زهيرى.

وشـكر خاص للدكتور أكمل الدين إحسان على مساندته لهذه الرؤية المتواضعة.

وأخيرا... إلى الغد الذى لابد وأن يأتى... إلى هلا وجنى.

كلمة

كثيرا ما ينظر المؤرخون إلى الأماكن والجمادات باعتبارها مرايا للناس وبوتقة الماضي بامتياز. وقد عرفت في الكاتبة الصحفية المجتهدة، الدكتورة هالة أحمد زكى، شغفها بالتاريخ والثقافة الإسلامية الذى يدفعها إلى سبر أغوار قرون من الزمان، والتحليق فى فضاءات رحبة مضت فى قصص وبطولات وشجن.

وما من شك أن حب د.هالة لتاريخ بلادها، والحكايات الغابرة التى حاكتها الأيام بروية، قد انعكس عبقًا فى كتاباتها، متسلحة بما لها من دراية وثقافة واسعة، ودراسة أكاديمية تصل الماضى بالحاضر، عبر جسر عشقها للتاريخ باطلاع متواصل وعميق على واقع الحال فى أكثر من جغرافيا، وقد استفادت من تجوالها كصحفية نشطة فى بقاع مختلفة من العالم الإسلامى، من عمق تضاريسه إلى تخومه البعيدة.. مثل بشكيرستان فى روسيا، ومدن قد تبدو مجاهل لبعض الصحفيين فى شينجيانج الايغور وقشغر وغيرها.

إن هالة أحمد زكى التى غرفت من كنوز الماضى تعرف أن فى اليوم شمسا، كانت قد أشرقت بالأمس.. وهى من تحمل باقتدار الراية من والدها الصحفى الكبير أحمد زكى عبد الحليم.

فى كتابها، تقدم لجمهور القراء صفحات تختزل أهم وقائع الزمان وأحداثه فى مصر، منذ أن خرجت من رحم الحياة إلى مشارف العصر الحديث.

وتحاول عبر هذا المدى الزمنى الطويل المكتظ بالتفاصيل، أن تسلط فى عجالة، إضاءات كاشفة على أحداث تاريخ يدفع بعضه ليفيض بفسيفساء متراصة من أحداث ومواضيع تحاول نبش وقائع صغيرة أخذت مجراها على أرض مصر، لأناس تركوا بصماتهم على عصرهم ومجتمعهم، فنراها تحتفى بهؤلاء قادة وعلماء أو شعراء من الذين تميزوا، لتدخلهم فى ذاكرة الزمن حتى لا يضيع ما أبدعوه وأنتجوه فى تضاعيف النسيان.

والممتع، أن الكتاب يسرد التاريخ بوقع القصة المحكية، فكأنه حديث لا ينتهى فى مقهى تحلق فيه الرجال منصتين لحواديت الزير سالم وأبو زيد الهلالى، فيذكر قصص أناس وشخوص تقف بين أيدينا حتى اللحظة مثل جبل المقطم، الذى شهد سفحه آلاف الحكايات التى أنبأت عنها روضته التى ضمت قبورا تاريخية لأعلام الصحابة.

ولاشك أن هذه الإضاءات على هؤلاء الرجال والنساء، قد أتاحت للقارئ إطلالات خاطفة، ذات نكهات مختلفة، لأناس عرف بعضهم معرفة عابرة، فأتاح له هذا الكتاب وقفة تأمل لهذه الشخصيات الفذة التى أسهمت فى صياغة تاريخ مصر وحياة شعبها، عبر تعاقب

الأزمنـــة، وبذلك أفاد المكتبة العربية بهذا النوع من الكتب التى تخرج عن المألوف، والتى تفتح لنفســها مجالا فى ميــدان الفكر والتاريخ إلى شرائح واسعة من القراء.

الاستاذ الدكتور/ أكمل الدين إحسان أوغلو
أمين عام منظمة التعاون الاسلامى

أول السطر

لا أعرف إلى الآن لماذا اخترت أن أبحث عن هذه القصص وأن أذهب إلى ما هو أبعد من هذا فأكتبها تحت عنوان «دقات على باب مصر»؟

فمصـــر ككيْـــان وكما يحلـــو للبعض أن يـــراه يبدو ثابتا ومرشـــحا للاســـتمرار، بدليل كل هذه النجاحات التى حققتها مصر برغم العديد من العقبات التى اعترضت طريقها على مر العصور.

فقد تجثم ظلمة حالكـــة وتهب رياح الاختبارات العاتية على مصر ويظن الجميع أنه لا فكاك من هذه المصاعب. ثم تشـــرق الشمس وتموت كل الغيوم فى السماء.

فمـــن يعش فى الحاضر يتصور وبنظرة محـــدودة أن المصريين الذين عاشـــوا بالأمس على هذه الأرض والذين شيدوا حضارة بل مجموعة من الحضارات على مر العصور ليسوا بالطبع هم هؤلاء الذين يمشون فى الشارع ويعانون من غلبة المشـــكلات اليومية التى تتعلق بالحياة ولقمة العيش.

وقـــد يأنس مـــن يفكر بهذا الأســـلوب إلى اعتقاد خـــاص بأن هؤلاء المصريين الذين عاشـــوا فى الماضى إنما ذهبـــوا مع أيامهم وأنه لا رجعة لمثل هذه الأيام على مر العصور.

وإن الذين صنعوا سبل التمدن المصرى فى القرون القريبة الماضية إنما هم أشخاص جاءوا إلى بر مصر واستقروا بها ولولاهم لما عرف المصريون التمدن.

اعتقاد غريب ..وهو من وجهة نظرى ليس ســوى أقوال تصدر عمّن لا يؤمنون بقدرتهم على تســيير الحياة ولا يملكــون بالقطع طموحات واضحة ويرتاح إلى الركون إلى فكرة هى أبعد ما تكون عن الحقيقة.

فإذا قمنا بما يشبه المساءلة الحضارية لوجدنا أن تاريخ مصر الطويل وعلاقتها بالغريب وأبناء البلد هو ما جعل منها لوحة من الموازييك قلما تتشكل فى مكان أخر.

ولهــذا لا يمكن أن نقــول إن المصريــين هم من ولدوا فــى بر مصر المحروسة فقط ولكن المصريين الحقيقيين هم من ينتمون بحكم التركيبة الحضارية لهذا البلد وهذه الشمس وهذا التاريخ.

وهــم أيضا من يذوبون عشــقا فى هــذه الأرض ويبــدأون تاريخهم الشــخصى على أبواب المحروســة مصر ويعيشــون الحياة بنمط جديد وعقيدة وسطية.

د.هالة أحمد زكى

أول الكلام

عندما كتب إدوارد وليام لين عن العادات والتقاليد المصرية مؤرخا الحياة فى مصر فى الفترة ما بين عامي ١٨٣٣م، ١٨٣٥م كانت هناك العديد من الجاليات التى تسكن مصر منها عشرة آلاف عثمانى وتركي وخمسة آلاف من الشوام وخمسة آلاف من اليونانيين وألفان من الأرمن غير سبعين ألفا من العرب والزنوج والمماليك والجوارى والفرنجة.(١)

وهو ما يعنى باختصار أن مصر فى زمن بدايات الأسرة العلوية كانت تضم الكثير من الجنسيات وأن هؤلاء جميعا عاشوا على أرض مصر ينعمون بتفاصيل الحياة المصرية دون أى تفرقة.

فالإحصاء يعلن بصراحة وكما هو واضح أن هؤلاء عاشوا بالفعل فى بر مصر إلا إنه فى النهاية مجرد إحصاء يتحدث بلغة الأرقام، وهى لغة قد يغيب عنها أن تعرفنا ظروف هذا اللقاء على الأراضى المصرية أو أن تحكى عن الزمن الذى جاء فيه هؤلاء وأن تعلن لنا بصراحة عما إذا كانوا بالفعل قد وجدوا فى مصر مرامهم.

وفى الوقت نفسه قد يغيب عنه وعنا أن نجد إجابة وافية بسؤال آخر: لماذا مصر بالذات؟ وأين ذهب أبناء العثمانيين والأتراك والشوام والأرمن واليونانيين والزنوج بعد هذا العمر؟!.

فهل دخل هـؤلاء فى زمن معين ولحاجة معينة وتركوا بلادنا بعد انتهاء مهمتهم؟ أم إنهم مازالوا يشـكلون جاليات تعيش بشكل مستقل ويتعاملون مع المصريين على أنهم مجرد جيران لهم؟

وإذا لم تكن الإجابة بنعم.. فالسؤال سيكون كالآتى: هل ذابت هذه الجاليات فـى الأراضى المصرية وتاهت ملامحهم المميزة وسـط الملامح المصريـة وأصبحوا بالفعل مصريين بعد اسـتقرار جيـل أو جيلين على أرض البلاد؟

مجرد أسـئلة تحتاج منا إلى إجابات واضحة. وإن كانت أسئلة وكما أعتقد بلا إجابات ظاهرة. ولهذا سأحاول أن أقرأ معكم بعض الحواديت المصريـة التـى تحكى لنا عن أنـاس جاءوا إلى أرض مصـر داخلين من باب من يقصدها واستقبلهم المصريون ليعيشوا بين ظهرانيهم وليتبادلوا معهم تحية الصباح والمسـاء ورغيف الخبز ومشـكلات الحياة اليومية وقصـص إنجاب ونجاح الأبناء والأحفـاد. فالمصريون هم من فتحوا لهم الأبواب.. والمصريون أيضا هم من رضوا بوجودهم.

فالواقـع إن مصر لم تغلق الباب أمام الأ غراب الذين لم يأتوا محتلين بل راغبين فى العيش على أرضها ولم تفرض عليهم قانونا يكسر القلم فى أيديهـم أو تفرض عليهم فنونـا أو عادات بعينها بل على العكس فتحت لهم أبوابها وتركتهم يعملون ويتحركون ويعيشون ولم تفرق بينهم وبين غيرهم من المصريين. فكانت لهم رؤيتهم التى أثرت الفنون المصرية. وقد فعلوا كل هذه ليقول المصريون لهم فى النهاية.. خطوة عزيزة.

أبناء قولة يحكمون

مرة أخرى... نقرأ إحصائية من كتاب «الأتراك فى مصر» صدرت فى السنوات الأولى من حكم محمد على باشا فى فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر تحدد عدد سكان مصر بمليونين وستمائة مصرى مسلم ومائة وخمسين ألف مصرى مسيحى واثنى عشر ألف تركى عثمانى وخمسة آلاف مملوك.(٢)

ويعتقد كثيرون من أصحاب الأصول التركية أن قانون المواطنة الأول الذى صدر عام ١٨٩٩م وجرى تعديله بعدها بعام قد أقر مصريتهم حيث إن المادة الأولى منه جعلتهم يتمتعون بحق المواطنة التى يتمتع بها كل من توطن القطر المصرى قبل أول يناير ١٨٤٨م وحافظ على محل إقامته وكذلك الأبناء وأفراد الرعايا العثمانية المولودون فى مصر والمتوطنون فى مصر منذ أكثر من خمسة عشر عاما.

أما الأتراك أنفسهم فلا يمكن رصد تاريخ معين لوجودهم فى البلاد وإن كانوا يعترفون بأن أول من جاء إلى مصر من أصول تركية وصاحب مكانة متميزة هو أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية، حتى إذا جاء المماليك أصبح لوجود الثقافة التركية بصمة كبيرة من خلال المماليك البحرية واستمر الحال فى ظل الدولة العثمانية التى شهدت أكبر تدفق للأتراك فى العهد العثمانى.

ومع تولى محمد على باشا حكم مصر والذى كان فى الأصل ضابطا فى الجيش العثماني برتبة سرجشـــمة توطنـــت الثقافة التركية، حيث إن التحديث الذى أقره فـــى بداية حكمه - كما جاء فى كتاب الاتراك فى مصر - قد تم طبقا للنموذج العثمانى.

وأما عن الحياة العامة فقد كان للأتراك تأثيرهم فى الجيش والطبقة الأرســتقراطية والطعام والموسيقى. ولهذا اختار الأتراك العيش فى المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية وبعض المدن المصرية وإن كانوا فى الحالة الأخيرة لا يتعدى عددهم ما بين الاثنا عشـــر والعشرين شخصا بينما لم يسكن القرى فعليا سوى شخصين أو ثلاثة.

وفى النهاية يمكن أن نقول إن أرفع المناصب فى الجيش قد شـــغلها الأتراك حيث سن محمد على باشا هذا السنة. فتشكلت الإدارة الحديثة مبدئيا من أفراد عائلتـــه وأهل بلدته «قولة» ومنهم ابنه إبراهيم القائد الحربى صاحب الفتوحات الكبرى فى الدولة المصرية الذى لا يشـــق له غبار وحفيده عباس ثم إبراهيم وأحمد نجلا أخته ومؤسسا أسرة يكن.

ولهـــذا لا يمكن حصر الوجـــود التركى فى مجموعة من الســـنوات أو المواقـــف. فمنذ تولى أحمد بن طولون أمر مصر وحتى نهاية الأســـرة العلوية توجد مساحة كبيرة من الزمن وتطورات لا يمكن وضعها تحت لائحة قانون واحد.

فهـــؤلاء الأتراك لا ينتمون فقط إلى مراحل تاريخية وحقب مختلفة ولكنهم أيضا ينتمون إلى فئات متعددة من البيت التركى. فهناك الأتراك

السـلاجقة والقبشـاق والكرج والأرناؤوط الذين عاشوا في مصر في زمن المماليك. وهناك الألبان وطوائف أخرى من الترك اسـتقروا في مصر في مرحلة لاحقة نسبيا.

إلا إنـه تظل لمحمـد على مكانة خاصة فهو ليس مجرد شـخصية شـهيرة تنتمي إلى هذه الطائفة أو الجالية في مصر ولكنه كان في أبسط تقدير مشروع دولة.

فلكي نفهم ببسـاطة ما فعله محمد على يمكن أن نقرأ ما كتبه جي فارجيـت في كتابه «محمد على.. مؤسـس مصـر الحديثة» حيث أقام محمد على المدارس التى تخدم أهداف التنمية الاقتصادية والعسـكرية مثل مدرسة المهندسـخانة والطب والولادة والصيدلة والفنون والصنايع والزراعة والبيطرة.

وكان يلتحـق بهذه المدارس تلاميذ الأزهـر والكتاتيب في البداية من الذين حصلوا على قسـط معقول من التعليم ثم أصبحت المدارس عامة ومدنية الطابع. ولما تعددت المدارس واتسع نطاقها أنشأ محمد على دارا سميت ديوان المدارس كأول وزارة للتعليم.

وفي كتاب وصف مصر قدر عدد سكان مصر ب٢,٦ مليون نسمة عام ١٨٠٠م ولكن أندريه ريمون ذكر أن العدد الحقيقي تجاوز أربع ملايين نسـمة ووصل إلى ٤,٧ مليون نسمة في نهاية عهد محمد على أى بنسبة زيادة قدرها ٤ بالألف كل عام.

ويرجع ذلك إلى زيادة عدد الوفيات بسـبب الحروب والأوبئة. فقد ظهرت الكوليرا عام ١٨٣١م واستمرت تعاود الظهور على فترات حتى منتصف القرن العشـرين في أعوام ١٨٤٧م، ١٨٤٨م، ١٨٦٥م، ١٨٨٣م و١٨٩٦م، ١٩٠٣م، ١٩٤٧م.

وحصد وباء الكوليرا الذى ظهر عام ١٨٣١م - ١٨٠ ألف شخص. أما وباء الطاعون الذى ظهر عام ١٨٣٥م فقد تسبب في وفاة ٥٠٠ ألف نسمة

ومـع ذلك فكانت نسـبة المواليد في عهد محمد علـى مرتفعة. أما الوفيات في الأطفال فكانت مرتفعة أيضا.(٣)

المهـم أن محمد علـى وعائلته يمكـن أن يحكوا عـن طبيعة علاقة الأتـراك بالمصريـين. وإن كنا لا يمكننا رصـد كل دقيقة وثانية حدثت في بر مصر في ذلك الزمن. فكل ما نسـتطيعه هو التقاط بعض القصص والحكايات التـى تناقلها المصريون والتـى كان بعضها في صف هؤلاء الوافديـن وبعضها الآخر ضد هذا التواجد الذى اعتبر في عرف البعض شكلا من أشكال الاستعمار.

❑❑❑

من الصاغة وخان الخليلى

يبدو أن مجئ الفاطميين إلى مصر مثل أفضل وقت للوجود الأرمنى على الأراضى المصرية. فخلافا لما حدث لآخرين فى ظل هذا الحكم أعطى الفاطميون الأرمن وضعا متميزا حتى إنه اعتبر زمنهم الذهبى ويكفى ما كان من أمر الوزير الشهير بدر الدين الجمالى من تول للوزارة والقيام بالكثير من الإصلاحات وتشييد العديد من العمائر الإسلامية ومنها أسوار القاهرة.

وإن كان الجمالى لم يكن الحالة الفريدة في العصر الفاطمى فهناك من وصل إلى رجال السلطة من الأرمن. إلا أن أكبر ظهورلهم قد حدث فى القرن السابع عشر عندما جاءوا إلى مصر كحرفيين فى الصاغة بخان الخليلى وكتجار للأسلحة واستقروا فى القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط.

وبالاقتراب من المشهد نجد أنهم مع الأيام أثبتوا قدرتهم على التفاوض الدبلوماسى فى العصر العثمانى وإن بدأ هذا التعامل حذرا، إلا أن عصر محمد على قد شهد هجرات أرمنية إلى مصر وخاصة بعد خروج الحملة الفرنسية.

ويقال إن محمد على باشا قد عمل فى صباه بتجارة تاجر أرمنى كان يعامله معاملة الأب لابنه.

ولهذا مع تولى محمد على الحكم أصبح باستطاعة أسماء كبوغوص بك يوسفيان الذى أصبح ناظرا للتجارة والأمور الإفرنجية الحق فى الظهور. وإن كان هذا الوضع لم يستمر كثيرا فى ولاية عباس الأول - الذى لم يتجاوب معهم كثيرا - والذى جاء خلفه سعيد باشا بانفراجة جديدة لهم. وبرغم هذا التذبذب بين القبول والرفض توافد هجرات قوية منذ أكثر من مائة وثلاثين عاما نتيجة للاضطرابات السياسية فى أرمينيا.

ويذكر الباحث محمد رفعت فى كتابه «الأرمن فى مصر» إن تعداد الأرمن الكاثوليك قد وصل عام ١٨٨٥م إلى ٢٢٨ أسرة منهم ٥٩ أسرة فى القاهرة و٢٦ أسرة فى الإسكندرية و٢٣ أسرة فى الأقاليم.

وقد بلغ عدد الأرمن الكاثوليك فى القاهرة عام ١٨٩٦م إلى ٢٣٢ أسرة يعيشون فى حى شبرا والعباسية والفجالة ودرب الجنينة وبين الصورين وباب الشعرية ودرب المصطفى وشارع محمد على والموسكى والأزبكية وبولاق.(٤)

وقد نجحوا فى الدخول إلى الحياة المدنية فى القاهرة بالخدمات التى عرفتها الطبقة المتوسطة كما أنهم أيضا لم يكونوا ليتركوا الريف المصرى دون مشاركتهم وإن كانت أقل بكثير من مشاركاتهم القاهرية.

باختصار نجح الأرمن أن يكونوا أداة من أدوات تحديث المجتمعات القاهريــة. فالأرمن بالتأكيد كانوا مقدمة لنقلة الحداثة التى شــهدتها مصر المحروسة قبل وبعد حكم إسماعيل باشا.



أول وحدة عربية

صعب جدا أن نرصد نقطة البداية لوجود الشوام في مصر. والشوام كلمة كانت تطلق غالبا على السوريين واللبنانيين الذين عاشوا في بر مصر.

إلا أنه لا يمكن وبأى حال النظر إلى علاقة الشوام في مصر دون التوقف عند مرحلتين تاريخيتين مهمتين أولاهما الحكم المصرى للشام والذى امتد لعشر سنوات بدءا من عام ١٨٣١م في زمن محمد على وثانيهما إعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م.

فكما تقول د.لطيفة سالم في كتابها المتميز «الحكم المصرى في الشام»: إنه منذ عام ١٨١٠م ومحمد على باشا يصوب نظره إلى تلك المنطقة وكان ابنه القائد إبراهيم باشا يرغب في احتواء الجيش العربى في إطار موحد شامل فكما قال ابراهيم نفسه:

أنا لست تركيا فإني جئت مصر ومنذ ذلك الحين مصرتني شمسها وغيرت من دمي وجعلته دما عربيا حتى إنه أقدم واتخذ لنفسه لقب «سر عسكر بلاد العرب» ولم يوافقه عليه والده محمد على باشا.

ويعد إبراهيم باشا واحدا من أهم ركائز الأسرة العلوية، فلولا قدراته العسكرية المتميزة وكفاءته في المعارك الحربية التى ثبت فيها وحقق الكثير لأبيه لما أستطاع محمد على أن يحقق أحلامه التى تفوق الخيال.(٥)

وأما المرحلة الثانية فهى الوحدة ما بين مصر وسوريا وهى الأحداث التـــى بدأت بمد قومى كبير عام ١٩٥٨م وانتهت عام ١٩٦١م وكانت فى الأغلــب تحقيقا عمليا للحلم العربى القومى الذى لايزال إلى الآن يراود المثقفين والمفكرين وإن كانت المحصلة النهائية فى صف اســتبقائه فى مرحلة الحلم الذى لابد أن يتحقق فى يوم من الأيام.

وبقراءة متأنية فى أوراق المسرح والصحافة نجد الكثير من التأثيرات الشامية فى حياة المصريين.

فهناك الكثير من المؤسسات الصحفية الكبرى التى بنيت على أكتاف مجموعة من محترفى المهنة من الشــوام مثل ســليم وبشارة تقلا اللذين أسسا مؤسسة الأهرام منذ أكثر من مائة وخمس وثلاثين عاما وجورجى زيدان صاحب البصمة الكبرى على مؤسسة دار الهلال الصحفية.

ومع دخول فن المسرح بثبات إلى أرض مصر جاء عدد من المسرحيين ومنهم ســليم النقاش الذى أراد اســتغلال نجاح أوبرا عايدة فترجمها وأعطاها إحساس العصر لتبدو مسرحية عربية ولينطلق بها من القاهرة ليحصد الشهرة والمال.

وكان نجـــاح النقاش هو الباب الذى دخل منه غيره من أبناء الشـــام مثل يوســـف خياط وسليمان الكردوى وجورج أبيض الذى قدم مسرحية «جريح بيروت» التى كتبها حافظ إبراهيم وقدمت على خشــبة المسرح لأول مرة فى ١٩ مارس ١٩١٢م. وهو ما يعنى تعريب المســرح المصرى. وهو قصة أخرى تضاف لإنجازات الشوام الثقافية فى مصر.

أبناء سلمان الفارسى فى مصر

يمثل الإيرانيــون فى مصــر حالة تســتحق التوقف أمامهــا بالرصد والتحليل.

فعلــى غير حال الجاليات الأجنبية التى تأتى إلى البلاد وتذوب مع مرورالوقت يعتبر الإيرانيون أنفسهم شأنا خاصا.

فمجئ الفارسيين إلى مصر قد تم بشكل الصدمة الحضارية عندما غزا الفرس مصر وقضوا على فكرة الاستقلالية بها وكونوا أكبر غزو عسكرى منظم بعد غزو الهكسوس.

فصحيــح أن الآشــوريين والليبيــين وفصائل مــن المرتزقة الإغريق والرومــان قد حطواالرحــال إلى مصر إلا أن الغزو الفارســى كان إيذانا بحالة استعمارية امتدت لزمن طويل.

فقــد كانت مصــر واحدة من أحــلام كورش مؤســس الامبراطورية الفارســية لمد نفوذه على العالم، إلا أن هــذا الحلم لم يكن ليتحقق على أرض الواقع بالصورة التى تمناها فى حياته. فقام ابنه قمبيز بعد موته بغــزو مصر ولكنه فوجئ بأنها كيان لا يمكــن أن يقبل الانضواء تحت أى كيان آخر.

فمعطيــات الحضارة المصرية الثابتة كانت تســمح لها بالاســتمرار برغم وطأة الاحتلال وفرض النفوذ.

فلم يتغير شـىء حتى بعد أن قام الفـرس بغزو مصر واحتلالها مرتـين، أولاهما كان على يد قمبيز واسـتمر لزمـن ليس بطويل من وجهـة الزمن الحضارية إذا ما قارناه باحتـلال آخر مثل الاحتلال البطلمي لمصر.

وثانيهمـا عقب هزيمة الروم التى ذكرها القرآن الكريم فى سـورة الروم وهى سـنوات ليسـت بالطويلة حيث لا تتعـدى العقد من الزمن وربما أقل من هذا.

إلا أن الرؤيـة الفارسـية لمصـر لم تقتصـر على هاتـين الواقعتين الاستعماريتين فهناك ذكرى جميلة يحتفظ بها الفرس فى مصر توقف عندها العالم الجليل حسـين مجيب المصرى والذى حكى عن قصة ربما لا يعرفها الكثير من المصريين وهى أن الصحابى الجليل سلمان الفارسى ابـن مدينـة أصفهـان الإيرانية والـذى كان أول رجل فارسـى يدخل الاسلام، والذى شـبهه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بلقمان الحكيم قد عاشت اثنتان من بناته في بر مصر المحروسة.(٦)

كما أن الكثير من الرحالة أمثال ناصر خسـرو قد عاشـوا لفترة فى القاهرة وكتبوا عن معالمها وحضارتها الإسلامية.

أمـا قائمة العلمـاء المصريين من أصل فارسـى فهى تشـبه لائحة الشـرف حيث إن كل الأسماء التى تضمها تختلط فيها الدماء الفارسية بالفطرة والوسطية المصرية أمثال الإمام الليث بن سعد والفخر الفارسى والأصفهانى وغيرهم.

ومما يذكر أيضا أن مصر كانت موطنا آخر للصحافة الفارسية. ففي عام ١٣١٨هـ كان في مصر ثلاث صحف تصدر باللغة الفارسية. كما أشار السفير الإيراني خسرو شاهي في جريدة القاهرة وهي: «حكمت» و«ثريا» و«بورووش» وكلها صحف أسبوعية.

وبعدها ظهرت صحيفة «جهرة نما» بعد ثلاث سنوات من احتجاب «بورووش» كرابع صحيفة فارسية في مصر وكانت تصدر مرة كل عشرة أيام ثم جاءت صحيفة «كمال» إثر اضطرابات شعبية في مدينة تبريز وقد صدرت في القاهرة بترحيب من الصحيفتين «حكمت» و«جهرة نما» والتي لم تصدر بعدها أي جريدة فارسية في مصر إلى يومنا هذا.

وان كانت هذه ليست القصة كلها فبين السطور توجد العديد من القصص التي لا نعرفها.

واحدة منها ذكرتها مجلة «مختارات إيرانية» حيث شهدت القاهرة الكثير من الجدل الديني والثقافي بين المصريين والإيرانيين. وأفضل مثال على هذا هي زيارة العلامة بهاء الدين العاملي لمصر ومباحثاته مع الشيخ البكري في الأزهر الشريف.

والشيخ بهاء الدين محمد بن العلامة عز الدين حسين العاملي المستشار الديني لشاه عباس أعظم ملوك الدولة الصفوية، وقد وصفته المصادر بأنه جامع العلوم العقلية والنقلية. وقد ولد في بعلبك عام ٩٥٣هـ. وقدم مع أبيه إلى إيران عام ٩٦٦هـ.

ودرس العلوم الدينية على يــد والده ودرس العلوم العقلية على يد الشــيخ عبد الله مدرس اليــزدى، والطب والقانون علــى يد عماد الدين محمود الطبيب، واستقر به المقام فى أصفهان عاصمة الدولة وخلال ذلك ألف كتابه الجامع فى الفقه الجعفرى وقدمه باسم الشاه.(٧)

هذا الرجل زار مصر عام ١٦١٦م أى فى بدايات القرن الســابع عشر ليؤلــف كتابين يعتبران من أشــهر كتبه وهما «الكشــكول» و«المخلاة» اللذان طبعا بمطبعة بولاق مرتين.

ويؤكد المقــال أن ما طبع لهذا العالم فى مصر أضعاف ما طبع له فى أى مكان آخــر. وقد دخل مصر فى الأصل متنكرا فى زى درويش حتى لا يقصيه الســلطان العثمانى الذى لم يكن على وفاق مع الشــاه الصفوى. ومع هذا عرفه الشــيخ البكرى الذى قال له: شممت منك رائحة الفضل فكتب الشيخ بهاء شعرا فى مصر:

يا مصــر سقيــا لــك مــن جنة ... قطوفهــــا يانعــــة دانيــــة
ترابهـــــا كالتبـــــر فــى لطفه ... وماؤهـــــا كالفضــة الصافيـــة
وقــد أخجــل المسك نسيم لها ... وزهرهــا قــد أرخـص الغالية
دقيقــة أصنــاف أوصافهـــــا ... ومالهـــــا فـــى حسنها ثانية
منـذ أنخـت الركب فى أرضها ... أنسيـت أصحابــى وأحبابيــه
فيمــا حماهــا الله مــن روضـة ... بهجتهــا كافيــــة شافيــــة
بهــا شفـــاء القلــب أطيارهــا ... بنغمــة القانــون كالدارية.(٨)

والحقيقة أن هذه الأبيات تعتبر تأكيدا لتاريخ لم يتوقف عنده كثير من الباحثين، إذ إن الإيرانيين رغم تفرد ثقافتهم وترددهم على مصر وتسجيل مشاهداتهم من خلال التجارب الشخصية يمكن ألا يمثلوا تيارا له ثقل الوجود التركي أو الشامي أو حتى الأرمني، إلا أنه يجدر بنا التوقف عند هذه الحكايات الشخصية التي يمكن أن تحكي لنا عن جوانب أخرى من الحياة المصرية وخاصة فيما يتعلق بتاريخ استقرار بعض الأسر الإيرانية في مصر على مر العصور.

فهناك موجة من التوطن في مصر حدثت في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وهو ما أوجد جالية إيرانية كبيرة جاءت في نهاية حكم الأسرة القاجارية وبدايات حكم الأسرة البهلوية والثورة البيضاء أثناء حكم الشاه رضا بهلوى.

ومازالت بعض الأسر المصرية صاحبة الأصول الإيرانية تحمل ألقاب رشتي وخراساني وأصفهاني وشيرازي.. ولايزال المصريون يذكرون أن آخر سنوات الأسرة المالكة في مصر قد شهدت مصاهرة بين الأسرتين المالكتين في مصر وإيران، حين تزوج شاه إيران الأخير محمد رضا بهلوى بالأميرة فوزية أخت الملك فاروق التي وصفها الإيرانيون بأنها تتفوق على أكثر الإيرانيات حضارة ومدنية.

فهذا الزواج الذي روجت له وسائل الإعلام كثيرا وقتها لم يكن إلا إعلانا عن التواصل والانفتاح بين المجتمعين المصري والإيراني.

يبـدو بالفعل أن ذلك الزمن كان عصرا ذهبيـا للتواصل. فكما يذكر مشـروع ذاكرة مصر المعاصرة إنه في الثامن والعشـرين من نوفمبر عام ١٩٢٨م عقـدت حكومة محمد محمود باشـا الأولى معاهدة صداقة بين مصـر وإيران تقضي بالمسـاواة التامـة في المعاملة بـين رعايا الدولتين وتمتعهم ومصالحهم بالحماية.

وقـد زال بهذه المعاهـدة كل ما يتمتع به الإيرانيـون في مصر من امتيازات خاصة وكانت خطوة في سبيل إلغاء الامتيازات.(٩)

وهكـذا لا يمكـن النظر إلى الإيرانيين على أنهـم برغم رغبتهم في التفرد كانـوا عنصرا دخيلا على الحياة المصرية. وإن كانت حسـابات السياسة تفرض تيمة خاصة بين التباعد والتقارب.

فعندما كانت مصر في السـتينيات تسعى إلى تأكيد مبادئ الثورة، كانـت إيران لها علاقتها الخاصة بالولايات المتحدة وإسـرائيل في ظل حكم الشـاه، وهو مـا جعل الكثيرون يعتبرونها شـرطي الخليج الذى يأتمر بالأوامر الغربية وهو ما أوجد حساسيات في التقارب معها أثناء حكم عبد الناصر.

إلا أن الأمـر قد تغير تماما أثناء حكم السـادات الذى كانت تربطه علاقـات صداقة جيدة بالشـاه تقوم علـى النظر في الأمور السياسـية والعلاقـات الدوليـة من منظور مقـارب. وبعدها اختلفـت الرؤى بين البلديـن مرة أخـرى مع إعلان معاهـدة كامب ديفيد وانتصـار الثورة الإسلامية في إيران فتغيرت دفة التقارب إلى ابتعاد معلن مرة أخرى.

وهكذا.يمكن أن ننهي بعض ملاحظاتنا عن الجاليات الأجنبية التي سكنت مصر وإن كنا في النهاية لابد أن نذكر ولو بشكل عابر الوجودين اليوناني والإيطالى في بر مصر.

فهؤلاء الأوربيون مثلوا عطاء خاصا لمنطقة البحر المتوسـط.. فالبحر واحد والطقس واحد والنظرة للحياة واحدة.

ولهذا لم يجد اليونانيون والإيطاليون والأروام مشـكلة في الانتقال للعيش في الضفة الجنوبية للبحر وخاصة في المدن الساحلية المصرية.

وقد كان تشـجيع العديد من حكام الأسـرة العلويـة لوجودهم في الأراضي المصرية بالإضافة إلى التقلبات والنكبات السياسية والاقتصادية التي شهدتها أوربا في القرون الثلاثة الأخيرة أكبرحافز لهم للاستقرار على أرض مصر. وقد اختصوا أنفسـهم كما هو الحال بالنسـبة للأرمن ببعض المهن المدنية فأقامـوا المقاهي ومحال الملابس وأضافوا إلى صناعة السينما المصرية.

وقد اسـتوعب أهل اليونان درس عصر الإسـكندرية مبكرا فعاشوا فـي مصر في كل العصور. وهذا أكثر ما يميزهم عن الأرمن الذين جاءوا بنفس الأفكار فيما بعد ليتمكنوا من الدخول إلى المجتمع المصرى.

أمـا الإيطاليون فقد كانت لهم هم الآخـرون إضافتهم فكما يؤكد د/ يونان لبيب رزق في ديوان الحياة المعاصرة أن الإذاعة اللاسلكية في مصر أنشأها إيطالى كمحطة صغيرة للتليفون اللاسلكي في ميدان سليمان باشا قرب جروبى.

ويعـود هذا بالطبع إلى ما كان يتمتع بـه إلايطاليون من وجود قوى فـى مصر، حتى إنهم كانوا يشـكلون أكبر جاليـة أجنبية أوربية بعد اليونانيين في مصر.

وهكـذا تجتمع لدينا أجزاء الصـورة التى يمكن أن نرى من خلالها وجوها لأشـهر الجاليات الأجنبية التي كانت تسـكن بر مصر.. إلا أن الصـورة لا يمكن أن تقص علينا الحكاية التى كانت غالبا ما تنتهى إلى حكاية أخرى.

والغريـب أن كل أبطالها لم يكونوا مصريين مـن حال الأصل ..إلا أن مصر قد غيرت من مسـار حياتهم. فهى ليسـت مجرد علامة فارقة غيرت مجرى الأحـداث ولكنها أصل كل حكاياتهم. فلو كانوا عاشـوا فى أى مكان آخر لاختلف التاريخ وتغيرت الكثير من السياسـات التى شـهدها العالم. ولو كانوا بعيدين عن أهلهـا لما اجتمعت لدينا كل هذه التفاصيـل الجميلة التى ينبغـى أن نقرأها ونتوقـف عندها لكى نرى الصورة البهية لمصر التى ننسـاها فى لهاثنـا وراء لقمة العيش... فمن المفيد أن نقـرأ هذه القصص والحكايات... التـى ربما حدثت فى نفس شارع منزلك فى بر مصر المحروسة.

□□□

أيام المِسك المصرى

فى البداية.. نتوقف معكم عند هذه القصص التى حدثت فى أزمنة مختلفة فى بر مِصر.

والقصص تشبه قصص خيال الظل الذى كانت له مكانة كبيرة فى مصر فى الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى والذى لم يتنازل عن عرشه فى أرياف مصر.

وهو الزمن الذى أطلق عليه زمن صندوق الدنيا الذى ينسب للرواة أصحاب السير الشعبية فى المقاهى.

فمهما نقل عن زمن العرائس والحكايات التى كانت تروى فى المقاهى وسط أدخنة الشاى والقهوة والنرجيلة من أنها ماض لا يعود... فهى قصص لا تفقد بريقها، لأنها وقعت وكما نقول فى أيام التبات والنبات.

بأمر الملكة صفية

بعد الصلاة على النبى العدنان... نحكى عن تصاريف القدر والزمان، فهـذه حكايات وكأنها قصص صنـدوق الدنيا فلا تحدث إلا في الخيـال. إلا إنهـا وكمـا يؤكد راو في مقهى شـعبى وقعـت في مصر وتناقلتها الأجيال.

فكما قالت له أمه صهباء في إحدى ليالى الشتاء إنه ما من أحد جاء إلى مصر وكتب عليه الإياب إلا وبنظرة أخيرة على البلاد تعيش معه إلى الممات يتذكر هذه الأيام ويصفها بأيام التبات والنبات.

وتبدأ قصتـى بأمر الملكة والسـلطانة مع صفية... وعفـوا فالبداية تلزمنـا أن نترك لقب الملكة بعيدا حتى نتعرف على هذه المرأة الجميلة ابنة فينسيا الإيطالية وأسرة بافو النبيلة.

فيحكـى في سـالف العصر والأوان أن الشـعور الذهبيـة والعيون الزرقاء والثقة بالنفس كانت من أهم ملامحها وكيف لا تكون وهي ابنة حاكم كرفو الذى يدين له الناس بالولاء.

وقد ظن الناس في الشـوارع في هذا الزمان أنها لابد أن تلتقى يوما بأمير أو نبيل كأبطال الحكايات إلا أن القدر أعد لها قصة بعيدة عن كل هذه الظنون والتوقعات.

فيحدث أن تخرج النبيلة يوما مع مجموعة من النساء ليركبن البحر وتداعبهن الآمال في رحلة يفرض فيها هواء البحر انتعاشة في الصدور وسمـرة فـي الوجنات إلا إنه تأتي الرياح بما لا تشـتهى السـفن. فما تكاد الجميلة تركب البحر حتى تتعرض السـفينة للخطف ويسـرقها القراصنة لينتهى بها الحال إلى اسطنبول حاضرة المسلمين الغريبة.

وتجد النبيلة نفسها وكما حكت له أمه بين يوم وليلة أسيرة بعد أن كانت أميرة وخادمة بعد ان كانت آمرة وسبحان مغير الأحوال سبحانه الحى الذى لا يموت.

فماذا تفعـل وقد تغيرت البيوت والأبـواب وذهب الأهل والأحباب فلابـد مـن بداية جديـدة وإلا لن تسـتمر الحياة التى أعطتها الشـباب والجمـال فالحياة تفرض نفسـها مع كل نبضة قلب وتـداول الأيام بين فـرح وكرب، ويجتمع القراصنـة على قرار وهو أن الجميلة لابد أن تباع للسلطان مراد ملك البلاد.

ويحدث ما أرادوا وتدخل النبيلة القصر بعد أن يصبح اسمها صفية. ولتصبح بالفعل صفية الملك وحبيبته وزوجته بعد أن تصالحت مع نفسها.

فبحسبة بسيطة ووقفة مع الذات وجدت صفية أن البحر الذى كانت تراه فى بلادها هونفس البحر والسـماء هى نفسها ومراد أفضل من أى زوج آخـر. فتصبح وكأنها واحدة مـن الترك العثمانيين، وتعيش نفس حياتهـم خاصة بعد أن تنجب «محمد» الذى أصبح فيما بعد معروفا فى التاريخ باسم السلطان الغازى محمد خان.

أما حكاية صفية فى مصر فتبدو أكثر غرابة فهى ترشحها لأن تكون واحدة من أهل الخير، ولهذا أوقفت أراضى وعقارات على مسجد بمصر. وقد ساعدها فى مهمتها عثمان أغا مملوك الملكة الذى أخذ الأمر بما يستحق من جدية ولكنه ما لبث أن وافته المنية فيترك الأمر ويذهب.

فتقرر صفية استرداد أشيائها وتطالب بعودة الربعمائة فدان زاوية تيم جهة منوف بعد أن فوجئت بأن هذا الوقف يمكن أن يستغل لصالح آخرين.

فعثمان فى الأصل مملوك لها ولا يحق لأهله الاستيلاء على هذا الوقف على أنه ميراث وخاصة داود أغا الذى أنكر الأمر كله.

ولهذا تلجأ صفية إلى القضاء وأصحاب السلطان الذى ينصفها فيعود المسجد مرة أخرى إلى صاحبته.

وتطلب صفية أن يستكمل المسجد الذى يحمل اسمها والذى أقيم فى مصر المحروسة وكان الجامع الثالث فى مصر الذى يحمل الملامح العثمانية وتوجد به الكثير من السراديب التى تبدو ملمحا متكررا فى الكثير من الآثار وإن كنا نجهل حكمة وجودها.

وقبل أن تأخذنا بقية التفاصيل نتساءل معا: فحتى الآن تبدو كتب التاريخ حائرة أمام أيام الأتراك العثمانيين فى مصر، فهل نجحوا فى بر مصر وفى التعامل مع المصريين كحكام يحملون راية العدل والسلام أم أنهم كانوا عبثا وتكرارا لصورة الغازى الذى يأخذ أكثر مما يعطى؟.

فبعد هزيمة المماليك الذين حار فيهم التاريخ وإن كان أنصفهم حين وصفهم بأنهم أفضل البنائين وأصحاب أعلى المساجد وأكبرها في بر مصر وبعد دخول السلطان سليم الأول عاصمة المعز تغير كل شيء حول المصريين. وجاءت أيام عليهم لم يعرفوها من قبل. فهؤلاء الوافدون الجدد قد وفدوا ومعهم بعض الأفكار التي تقبل المصريون بعضها ورفضوا بعضها.

فهناك أسلوب جديد في إدارة البلاد ونمط إدارى جديد، وإن كان المهم بالنسبة لنا وضمن تفاصيل هذه الحكاية هو فن المعمار المصرى الأصيل الذى شهد بعض التغير عند قدوم العثمانيين فعرفت القاهرة القباب الضخمة والتفاصيل البسيطة في الشبابيك والواجهات والمداخل المعلقة التي وصفت بأنها بلغت ذروتها في العصر العثماني.

ويقال وحسب رؤية كتب التراث إن عدد درجات كل سلم من السلالم المؤدية للمداخل الثلاثة بمسجد الملكة صفية قد بلغت تسع عشرة درجة تبدأ من أسفل باتساع عظيم وتأخذ في الصغر عند المدخل.

أما المئذنة فهي عثمانية بسيط يعلوها الهلال ويكسوها الرصاص. وكما يوجد للسلم تسع عشرة درجة يوجد للمسجد تسع عشرة قبة صغيرة لا تنفي وجود القبة الأم.

فمسجد الملكة صفية في الصف الأول بين المبانى العثمانية وإن كان قد سبقه جامعان عثمانيان آخران وهما سليمان باشا بالقلعة وسنان باشا ببولاق الذى يعتبر صورة مقاربة من مسجد أحمد باشا والذى قام بتصميمه أيضا المعمارى الشهير سنان باشا.

أما العمارة الداخلية فهى عبارة عن صحن أوسط شبه مربع مكشوف تحيط بـه أربعة أروقـة، وهناك خمس وعشـرون نافـذة من الجص المعشـق بالزجاج الملون واسـتخدام آخر لبلاطات من القيشـانى المزين بأزهـار عثمانية الطراز، ويقال إن هناك بوابة تواجه المدخل الشـمالى للمسجد فى نفس الموقع بسكة الملكة صفية المتفرعة من شارع محمد على بالدوادوية بنيت فى نفس التاريخ مـن بدايات القـرن السـابع عشر وهو يحدد بعام ١٠١٩هـ.

أمـا اللوحة التذكارية الثمينة على الباب الأوسـط للمسـجد والتى اسـتكملت بعـد أن عادت إلى صفية ملكية المسـجد والوقف.. فقد كتب عليها إنشاء هذا الجامع المبارك المعمور بذكر الله تعالى صاحبة الخيرات الدرة الشـريفة والدة المرحوم مولانا السـلطان محمد خـان طاب مثواه على يد فخر الخواص المقربين مولانا إسماعيل أغا الناظر الشـرعى على الوقف المذكور.

وهو ما يعنى أن المسـجد قد بنى بعد وفاة زوجها وابنها السـلطان وبأمـر الملكـة صفية التى حـددت للمسـجد رواتب الموظفـين والقراء واعتبرته وقفا خيريا.

ففـى النهاية لا يبقى للإنسـان إلا ابن يدعو له أو عمل ينتفع به أو صدقة جارية كما فعلت صفية التى أرادت بعد هذا كله أن تبنى ضريحا ملحقا بالمسـجد لتدفن به، وإن كانت هنـاك الكثير من الأقلام التى لم تقف فى صفها اعتبرتها هى من تحايلت للحصول على هذا المسجد.

ولكنها فى النهاية قصــة تناقلتها الأجيال وتحتمل وجهتى النظر فى أن تكون صفية من فرسان الخير أو أن تكون ممن يحصلون على أشياء تخص غيرهم.

فالمهم والسؤال هو لماذا بنت صفية هذا البناء؟ ولماذا نشبت هذه المعركة على أرض المحروسة لاستخلاص هذا المسجد ووقفه للخير.؟ فلا أحد يعلم لــاذا أحبت صفية مصر بالــذات، ولا كيف انتهت الحكاية؟. فربما لأنها مصر التى اختصت نســاء أخريات بمكانة فى تاريخ الإسلام ومنهن شجر الدر أول ســلطانة مســلمة فى مصر وخوند بركة أم الســلطان شعبان التى عاشــت هى الأخرى فى العصر المملوكى فكانت أكثر النساء المؤمنات بركة وبرا بشعبها وابنة الخليفة الحاكم بأمر الله الذى توقف التاريخ طويلا أمام أبيها بالسلب والإيجاب فى حين عرفت هى بالعطاء الذى يختلط بالمسك.

فلا يكاد يمر عام على مصر وإلا يخرج من بين أهلها ممن يعيشــون على أرضها من يعطى كما تعطى الأرض المصرية المباركة.

المهــم أن صفية قصة تتكرر فى كل زمن. ولكن الغريب فى حكايتها أنهــا اختارت مصر التــى لم تولد بها ولم تشــهد صعودها إلى العرش العثمانــى والغريب أيضا أنهــا لم تخترها فى زمن قــوة الزوج والابن الســلاطين. بل دافعت عن قضيتها إلى حد اللجوء إلى القضاء للتحقق من أمر ملكية هذا الوقف وهذا المســجد.. فما الذى يجعلها تتحمل كل هذه المشقة وبالذات هنا فى مصر؟ وهل صفية هى القصة الوحيدة التى لدينا؟ لا أعتقد فســوف نقــص القصة بعد القصة.. والمهــم أنها قصص مصرية وأنها حدثت بالفعل.. فماذا بعد؟

اعطِ الصباح فرصة

يقول الــراوى: وأمــا صاحبة القصــة الثانية فقد كانــت هى الأخرى أمــيرة، وكيف لا تكون والبطلات فــى كل زمان ومكان لابد وأن يكن جميلات ورقيقات وأمــيرات. وكأن الحياة قد خلقت لهن وحدهن إلا أن حكايــة هــذه الأميرة لم تكن كغيرها من بنات الأســر المالكة ولا حتى بطلات القصص الخيالية.

فلم تكن تحب أن تقف كثيرا أمام المرآة التى كانت تعشــقها وتعشق ملامحهــا النبيلة ولا أن تعدد ملابســها وتبحث عن الملك والســلطان. والحقيقــة أننا لو تركنا الباب مفتوحا لكلمة لم تكن فلســوف نكررها كثيرا. فما أشــد بهاء الأنثى التى تكره التصنــع وليالى القصور وأضواء الشــموع على الموائد الفخيمــة وأضواء الصالونات الملكيــة التى لم تكن لتعكس سوى صور وجوه وكأنها تماثيل صامتة.

فالأميرة عين الحياة.. وهذا اسمها لم تكن تعشق الليل وكانت دائما تقف فى صف النهار والصباح الباكر.

ربمــا لأن كل الأحداث الجميلة التى حدثــت فى القصص الخيالية والتــى وقعت لها فــى حياتها تأتــى وكأنها الفجر. أمــا الاختبارات القاســية وفقد الأحباب وأعز الناس فلم يكــن ليفاجئها إلا تحت وطأة ظلام الليل.

حقــا كانت الأميرة عين الحياة فـــي منطقها هذا تبدو امرأة غريبة. أما حكايتها التي كان يتناقلها الناس في بر المحروسة جيلا بعد جيل فكانت لا تقل غرابة.

ويتلفــت الراوى حوله وقد تهيأ للــكلام ولأن لكل كلام بداية؛ فقد كانـــت كلمة البداية عن عـــين الحياة تصفها بأنهـــا درة زمانها، حين كانت كل الأنظار ترقبها وتتطلع إلى حســنها وسموها. فهى ابنة أحمد رفعت باشا المرشح لعرش مصر بعد الوالى محمد سعيد.

إلا أن الحيـــاة وكما حكت لنا الجدات لهـــا حكمة تقال في كل قصة نســمعها ونحن بين اليقظـــة والنـــوم، فهـــى لا تعطى لأحد ما يحب وإلا لما أصبحت الحياة حياة. ولما عشنا فى هذه الدنيا التى تقابلنا بأسوأ المفاجآت.

ففى ليلة مظلمة كانت عين الحياة في غرفتها وحيدة حينما سمعت صوت بكاء مكتوم بين غرف القصر ما لبث أن أعلن عن نفســه فى صراخ متصل بعد أن أشيع خبر مصرع والدها فى طريق سفره.

فهكـــذا فى لحظة يذهـــب كل شـــيء ولا يصبح الملك ملــكا ويضيع السلطان. فإذا كان من حولها فى القصر قد فقدوا خطوات لأقدامهم على طريق المســتقبل البسام، فالمأســاة هى فقدها للأب لا الملك ولا السلطان. ولتطاردها الذكرى الثقيلة والدمع الذى تذرفه فلا يشــفع لها عند قلبها ليحط بعض ما يثقله من ألم.

فقــد انتهت الدنيا واغلقت الأبواب ولم يعد هناك إلا النافذة وحتى لا يتعجب أحد. فاللجوء إلى النافذة ليس قرارا بالانســحاب من الحياة فــكل ما كان يحدث أن عين الحياة كانــت تنتظر الصباح لتعطيه فرصة في أن يتسلل ضوؤه لغرفتها ومعه صوت فتيات يغنين وهن ذاهبات فى طريقهن إلى الترعة.

ففي البداية لم تكن الأصوات واضحة فكان الحديث كله غناء إلا أن متابعة عين الحياة لانتظار الصباح قد أعطاها الفرصة فى أن تستمع وأن تقترب أكثر من صوت المصريات أو بنات العرب كما كان يسميهم مشرفو القصر.

فما بدأت تستمع إليه حتى تحول شيئا فشيئا إلى عادة من الانتظار اليومــى للفلاحين والفلاحات اللائى كانت أحاديثهن تحكي ببســاطة عما يجرى فى مصر. وبمــرور الأيام أصبحت عين الحياة ترى بأذنيها ما يحدث فى القرية الصغيرة الملاصقة للقصر وتســمع شكوى الفلاحين وأنين الناس وتشعر بقسوة الرياح فى ليالى الشتاء.

ومــا أكثر الأيام التى كانت تتحفــز فيها لتجنب النافذة إلا إنها لم تســتطع ربما لأنها تعلم أن هناك من يحنو علــى الأرض من الفلاحين ويغــرس أقدامه فــى طينها حتى يثمــر وتبتهج مصــر بحلو ثمرها، ويبتسم نوار الخير فى حقول القطن.

فكثــيرة هى أحاديث الفلاحين وكأنهم أنــاس من عالم آخر يعيش منهم من يعيش ويموت منهم من يموت. إلا أن صوت الفتيات عند حافة الترعة فى الفجر وصوت الناس عند الغروب لا ينقطع.

وأما الليالى فقد جاءت فى حياتها وكما توقعت. فلم يكن كثير منها يسر الفؤاد. فهذه ليلة لم يعرف بر مصر مثلها ولا فى الأحلام يختارها فيها الخديو لتتزوج من ابنه حسـين وليصبح العرس هو عرس الأسرة المالكة فهو عرس الأخوة الأمراء توفيق وحسـن وحسـين وفاطمة أبناء الخديو اسماعيل.

ولهذا تحمل الهدايا فى أسبتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس ويرتدى الجميع وارد أوربا التى يعشقها الخديو فتتنافس الأقمشة المطرزة باللؤلؤ والأحجار الكريمة والزمرد مع تيجان الملك على كل جبهة ملكية.

ففى هذه الليلـة تألقت فاطمة ابنة الخديـو اسماعيل وعين الحياة ابنة أحمد رفعت باشا عندما جمعهما فى هذه الليلة المصير فى مقاسمة الأضواء.

فهذه ليلـة من الليالى التى مرت على عين الحياة وحسـدها الناس عليها إلا أن النهار الذى عاشته مع الفلاحين وحدهم والذى لم تكن فيه مجرد أميرة أو تحفة فى القصر هو الأبقى.

ويتوقف الراوى قليلا لكى يتذكر تفاصيل أخرى وأحداثا من حكاية الأميرة غابت مع الأيام.. فيعود ويحكى عن نهار لم تعرف المحروسة مثله، عندما أقامت الأميرة مسـجدا وسبيلا باسمها. ونهار آخر قرأت فيـه الأميرة جريدة اللطائـف وتوقفت أمام ما كتبـه الأدباتى عبد الله النديـم خطيب الثورة العرابية عن مصر حـين تعرضت فلاحة مصرية

للجلـد بالكرباج حتى الموت لأنهـا رفضت أن تدل على المكان الذى كان زوجها يضع فيه أموال معاشهم أو أقل القليل الذى يملكه.

فقد تهيأ قلبها للثورة على الظلم والاستبداد ولهذا لا عجب عندما يتحدث التاريخ عن مساعدة أميرات فى الخفاء لعرابى وإخوانه ضد الاحتلال. فهؤلاء مصريون حقيقيون ومن يقل غير ذلك فقد جاء بقول آثم.

ولهـذا ظلت هذه الجهود لسنوات وسنوات تعين الناس فى بر مصر على تحمل مشاق المرض وعذاباته بعد أن رحلت الأميرة وهكذا فإن صباحا يأتى بعد صباح وعين الحياة تواصل أحلامها. فلم يكن فى حياتها صباح واحد خذلها.

وقد تذكرها الناس يوم أعلن حسين كامل سلطانا على مصر وتذكروها عندما وقف ينصح أبناء مدرسة الحقوق السلطانية من المصريين بالتفرغ لأشغالهم فقط وليدعوا حب الوطن المتطرف لأن التجارب هى التى ستفيدهم.

وأما الصباح الوحيد الذى كرهه أبناء البلد فى سيرتها فهو الصباح الذى أسلمت فيه الروح وتركت كل هذا الخير يشفع لها.

فقد كانت مسيرة خاصة للحب لم تعرف المحروسة لها مثيلا فى الخير وحب الوطن. وكيف لا يتذكرها أحد وقد رحلت بعد أن أعطت النهار فرصته واختارت مصالحة النفس لا الملك والسلطان قبل أن يصبح من اختاره لها الخديو زوجا سلطانا على مصر.

الكنز

شكر خاص لكتاب «القاهــرة.. تاريخها وفنونها وآثارها» الذى أورد كاتبه د/ حســن الباشــا تفاصيل هــذه القصة وكانــت الملهم فى كتابتها بهذا الشكل القصصي. فكل ما فعلته هو تحويلها إلى قصة...

بعــد الصلاة على النبى العدنان... نحكــى عن تصاريف القدر. والزمــان. فهذه حكايات وكأنها قصص صندوق الدنيا فلا تحدث إلا فى الخيال. إلا إنها وكما يؤكد راوٍ فى مقهى شــعبى وقعت فى بر مصــر وتناقلتها الأجيال. فقد قالت له أمه فى إحدى ليالى الشــتاء وأنــه ما من أحــد جاء إلى مصــر وكتب عليه الإيــاب إلى أرضه إلا بنظرة أخيرة على البلاد تعيش فى قلبه إلى الممات يتذكر هذه الأيام ويصفها بأيام التبات والنبات.

وتبــدأ الأم حكايتها إلا إنها وكما يحكى الــراوى لم تكن كعادتها حيــث إن كلامها فى تلــك الليلة البعيدة كان مختلفا عن كل ما ســبق. فكثيرا ما كانت تتوقف عن الحكي لتثبت الأغطية الثقيلة حول قدميها بعــد أن نفذ إليها برد الشــتاء، وكثيرا ما كانــت تأخذها الحكاية إلى الأسطورة برغم أنها حدثت بالفعل فى بر مصر. إلا أن أكثر ما شد انتباه الراوى صوت دقات قلبها وهى تحتضنه وهى تحكي. وســؤاله الذى لم تجب عنه حول بطل هذه القصة... قصة كنز الإسلام.

وقصـــة كنز الاســلام لا يوجد بطــل واحد لها. فهـــي قصة يعرفها المصريون وسمعتها الأم في صباها وشبابها من جدتها التي وهن سمعها. وقــد عرفتها أيضا مــن خالتها وأخريات وأرخهــا المقريزى بنفس الاســم الكنز وكتبها كحكاية نقلها عنه المؤرخون والكتاب، ولم يعرف بطلها. فربما كان ابن طولون وربما كان تل يشــكر وربما كان المصريون أنفسهم هم الأبطال.

ولم يقنع هذا الحديث الراوى وخاصة إنه كان لايزال صغيرا فاســتدار إليها متســائلا: كيف يا أماه يكون للقصة أكثر من بطل. وهنا تنهدت الأم التــي تعرف من أحوال الدنيا أكثر مما يعــرف الصغير في أحضانها. فما أغرب هذه الحياة وما أجمل مصر وتل يشكر الذى نبدأ عنه الكلام.

فيحكى إنه في زمن بعيد كان هناك تل مرتفع مجاور للفسطاط. هذا التل هو تل يشــكر صاحب الأساطير الذى وصفه أهل حى الخليفة بأنه تل مبارك، وهناك من يقول أن تل يشــكر قد عرفه ســيدنا موسى عليه الســلام. وهناك من يحكى عن وجود حارس الخير وعن وجود سراديب سرية في المكان.

إلا إننا في حقيقة الأمر لا نستطيع أن نتأكد من هذا فما نعرفه يقينا أن تل يشــكر كان ولايزال مباركا لأن رعيلا من المســلمين الأوائل الذين فتحوا مصر قد استقروا به. وإن التل نفسه قد اتخذ اسمه من يشكر بن جزيلة أحد الفاتحين لمصر بمشيئة الله عز وجل. وأن الخير كله قد عرفه المصريون في هذا المكان وما حوله.

فالتـل يرتفـع عـن الأرض ويبقى ناظـرا إلى السـماء فى رهبة وخشـوع فهو تل مصرى جميل ربما به شـىء من ورع المؤمنين فى مكـة والمدينة، ويغمـض الراوى عينيه فربما كان خياله أسـبق إلى تل يشـكر الذى مازال يعيش على أرض مصـر إلا إنه يعود إلى أمه ويسأل... وماذا عن ابن طولون؟

وتصمت الأم قليلا ثم تبتسـم وتقول: إنه صاحب المسـجد الجامع، وأصـل حكاية الكنز، فلولا مسـجده العتيق لما كانت قصة الكنز، ولولا ما فعله لنسيه التاريخ أو ليس من يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب؟!

فابـن طولـون أمير وهو كمـا يحكـى التاريخ والى مصـر فى زمن العباسـيين وقد جاء إليها بنـاء على رغبة بكباك الـذى ولاه الخليفة العباسـى فى الأصل أرضها. وقد حدثـت المصادفة وجاء إلى مصر إلا أن التوفيق شىء آخر. فلولا توفيق الله تعالى ما حدثت القصة كلها. فقد شاء الله تعـالى أن يتزوج ابن طولون ابنة ياركوج الذى رشـح واليا لبر مصر بعد باكباك فجعل الأمر متروكا لابن طولون مع الأيام التى لم تعاند ابن طولون بل ثبتت أقدامه فى مصر ليصبح واحدا من أهلها. أوليس كل من عاش على أرض مصر يعد مصريا كما اتفقنا؟!

نعم يا أمى

إذن هـو مصـرى يا بنى وقد عاش قريبا من الفسـطاط إلا إنه حدث إن ضاقت البيوت بسـكانها وإنت تعرف عـادة المصريين فى الإنجاب وانتظار العوض فى الأبناء.

فلم يبق شــبر لم يعمره الناس بالبيوت والأســواق وحتى المســجد الكبــير لم يعد أحد يرى الراحة ويعرف الطمأنينة والصلاة به والدعاء لكثرة الخلق وتزاحم الكتف بالكتف.

فهذا ما حدث فى العاصمة التى عندما وصل فيها الأمر إلى هذا الحد، وبنظـرة ســريعة للبلاد قرر ابن طولون أن يجعل لــه حاضرة أخرى وأن يتقرب إلى الله تعالى بمسجد يشبه مسجد الرسول بالمدينة ومساجد سامرا.

وقد كانت عادة الولاة ممن سبقوه وتبعوه إذا عزموا شيئا أن يفرضوا ضريبــة علــى الناس. إلا أن ابن طولون لم يرد هذا فأراد أن يســقط هذه الضريبة ولم يكترث بمن يوســوس له بخطأ ما فعل. حتى إذا جاء يوم كان قــد أوغل فيــه فى الصحراء تعثرت قدم أحــد خيول مصاحبيه فى الرمال وسـقط على حافة الكنز بدلا من سقوطه على الرمال. وهذا الكنز لم يعــرف له صاحــب ولا هيئة معينة فقد كتم من كان فى معية طولون تفاصيله إلا إنهم قالوا إن المكان كان مليئا بالخير.

وهكذا كان هذا المســجد فاتحــة خير على مصر، وهكــذا أراد ابن طولون أن يكمل وعده بالتــزام الرحمة فلم يغتصب أحجار مبان أخرى فى مصر وعلى أعين أصحابها.

بل إن الأمر تعدى هذا بإطلاق سراح رجل فى السجن بعد أن دارت عليه الأيام وفتت عظامه ليخطط هذا المســجد على مرأى من ابن طولون وأقيم مكان خاص بجانب الفسقية داخل المسجد ليجلس إليه الصبية من طــلاب العلم كل يوم جمعة ليتعارفوا ويعرفوا أمور دينهم. فباب العلم والفقه مفتوح على مصراعيه أمام كل قلب يشعر ويفهم.

وقد أقيم إلى جانبه بيمارستان أو مستشفى صغير يصرف فيه الدواء للناس.

بل خفـف ابن طولون عـن المصريين العمل فى المسـجد أثناء نهار رمضان فلم يكن يطول العمل بعد اصفرار الشـمس. فكان هذا التخفيف وهذا العطاء هما السـبب في وجود هذا المسـجد المبارك الذى قيل إن له اثنين وأربعين بابا من الأبواب وصحنا مربعا تتوسطه فسقية يحيط بها أربعة إيوانات بها مائة وتسعة وعشرون شباكا وأكثر من محراب منها محراب يحمل اسم السيدة نفيسة أما المئذنة التى تشبه مآذن سامرا فلم تعرف مصر مثلها بين الشكل الدائرى والمربع والحلزونى.

وقد بني المسجد على مستويين وجاء سقفه من جذوع النخيل وزخارف جدران لم تشهد البلاد مثلها.

وأمـا العرائس التى تزين المسـجد فقد كانت تحتـاج من وقت لآخر للإصـلاح الذى تولاه أهل مصـر جيلا بعد جيل ومن زمن قلاوون إلى زمن علي باشا مبارك ومن جاء بعده إلى يومنا هذا.

وهكذا الحيـاة تعطي من لا يجرى خلفها فأصبحـت القطائع التى بناها ابن طولون حول مسجده مدينة كبيرة يعيش بها المصريون وتمتد من قلعة الجبل الآن إلى جامعه.

وقد كثرت فيها القصور والحدائق حتى قيل إنه فى هذا الزمن قد بلغ عدد الدور المصرية مائة ألف دار برغم أن النفقة التى أجزلت للمسـجد لم تتجاوز المائة ألف دينار فلم يكن هذا الامتداد العمرانى متوقعا.

وأما ابن طولون فيحكى أن الأمر كله كان بتوفيق من الله تعالى ورحمته. فقد رأى الرسول ﷺ فى منامه يخط له هذا المسجد ورأى النمل يتجمع حوله. وكان هذا النمل وحسب تفسير المفسرين لابن طولون هم الناس الذين عاشوا فى هذا المكان وهم المصريون الذين باركوه بأعمال البر.

حقا لم يخطئ ابن طولون حين كتب هذه الكلمات: أنشئ هذا المسجد المبارك الميمون بجماعة المسلمين ابتغاء رضوان الله وألفة المؤمنين وسعيه فى عمارة بيت الله وأداء فروضه وتلاوة كتابه ومداومة ذكره بقول الله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة النور الآيات: ٣٦ - ٣٨].

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد، ويغمض الراوى عينيه ولكنه يغالب النعاس بالسؤال: ولكن يا أمى ماذا فعل المصريون بعدها؟

وهنا تفرج الأم عن ابتسامة تشرق لها نفسها: أما يكفيك ما قلت فمن الذى بنى المسجد وعمر المدينة ومن الذى تعلم داخل رحابه، ومن يا بنى هؤلاء الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله؟

أعتقد يا بنى إنك تعرفهم فعندما يأتى الصبح سوف أصحبك إلى هناك إلى تل يشكر لترى أبطال القصة الحقيقيين الذين لم يختلفوا فى الكثير ولا القليل عن أجدادهم.

أما ابن طولون فقد جاء إلى البلاد وظلت صورتها فى قلبه إلى الممات. فقد كان شــخص يحمل الكثير من الصفات الحسنة والكثير من الصفات التى تحسب عليه. فلا يوجد شخص حكم مصر إلا وكانت له الكثير من الأشياء التى تحسب له والكثير من الأشياء التى تحسب عليه.

ولكن يا أمى ماذا عن الكنز؟

الكنــز يــا ولدى لم يكــن فقط مــالا ولكنــه كان فى قولــه تعالى:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[سورة النور آية: ٣٨].

وهكــذا يابنى فهذه الحياة قصيرة ولهــذا أترك لك كلمات فربما لا أكــون بعدها معك وتكون هذه أيامى الأخيرة. فيا بنى اســتعن بالله ولا تعجز واتق الله وسوف يجعل لك مخرجا أينما كنت.

وينام الراوى ولا يغالب النعاس وكذلك الأم التى تستغفر الله لنفسها ولأهلها ولفرسان الخير الذين عرفتهم البلاد.



ست الملك وقلاوون

هل تعرفون ست الملك؟

ربما سمعتم بهذا الاسم في القصص والحكايات الشعبية إلا أن كثيرا من المصريين لايزالون يذكرونه. فهو اسم ليس بعيدا عن الذاكرة، ويتكرر في المسلسلات الإذاعية وفي القصص الشعبية.

ولكن من تكون ست الملك أولا؟ فلابد من تقديمها لنا قبل بداية الحكي. فقد اتفقنا أن نتعرف إلى الأبطال أولا قبل أن نقص أية قصة ومنها حكاية هذا البيمارستان.

ويبدو أن تفاصيل كثيرة سوف تأخذنا، فهي رواية تحتاج إلى كاتب في قامة نجيب محفوظ ليحكي عنها وإن كانت قد ظهرت من قبل كما قلنا في المسرح والقصص الشعبي ولكنها في النهاية مجرد قصة من الحياة.

فست الملك هي ابنة الخليفة العزيز بالله وأخت الخليفة الحاكم بأمر الله وهو ما يعني أنها عاشت في زمن الفاطميين في بر مصر وأنها كانت صاحبة دور على مسرح الحياة في هذا العصر.

ونقترب أكثر من ست الملك ومن ملامحها.. فأمها سيدة رومية وقد ولدت في بلاد المغرب موطن الفاطميين وهي تكبر أخاها الحاكم بأمر الله بخمسة عشر عاما كاملة.

وفى التاريخ تأكيدات وكما يشير د/ عبد الرءوف يوسف بأن عمرها عندما توفى والدها كان ستة وعشرين عاما وأن الحاكم وقتها لم يكن يتجاوز الحادية عشرة من عمره.(١٠)

وتبدو وفاة الوالد هى البداية المتفق عليها لقصة ست الملك بل وبداية أحداث الرواية كلها حين سافرت إلى القاهرة المعزية ليلا حتى تحافظ على عرش الخلافة.

فهذا هو المنطق الذى تبنته ست الملك وأفهمته لمن حولها حتى بدا وضعها مقبولا من الجميع. فهى الأخت المخلصة لأخيها والوفية لوالديها وأسرتها التى يبدو كل همها فى هذه الدنيا هو الحفاظ على عرش مصر.

وتمر الأيام حتى يبلغ الحاكم الخامسة عشرة من العمر، عندها بدأت فى هذه السن تظهر عليه أعمال الاستبداد وجنون العظمة إلى حد أنه قتل مربيه برجوان الصقلى وأراد أن يفعل الشىء نفسه بأخته التى ناصرته.

فقد كان – وكما يحكى الناس– صاحب شخصية غريبة. وقد تردد الكلام نفسه فى الكتب التى تتناول التاريخ المصرى حتى إن المقريزى يحكى فيما يحكى أن الحاكم كان يعتريه جفاف فى دماغه ولهذا قتل الكتاب والوزراء وتخبط فى قرارات غريبة حتى إنه ولى ابن عمه ولاية العهد بدلا من ولده.

وقد احتـار الناس فى أمره وإن كان هناك مـن يقول إن مصر برغم هذا عرفت شيئا من الاستقرار فى عهده حتى خرج وكما تروى القصص الشعبية فى ليلة إلى جبل المقطم لرصد النجوم فلم يعد. وأصبح خروجه المفاجئ من الحياة لغزا حتى شـاع بين المصريين أن ست الملك وراء هذا الاختفاء غير المبرر.

إلا أن هناك وخاصة فى كتب التاريخ من ينفى كل هذه الشـائعات، مسـتندا إلى أمرهـا بقتل سـيف الدولة بن دواس الـذى يعتقد أنه كان سـببا فى موت الحاكم بأمر الله أو حتى اختفائه غير المبرر، ويقال إنه باختفاء الحاكم عادت ست الملك من جديد إلى سدة الحكم ولكن من خلال ابن أخيها حتى وافتهـا المنية وانتهت صفحة حياتها، وهذه الحكاية ليست بالبسـيطة وخاصة إنها جرت على أرض مصر وتداولتها الكثير من الاقلام واعتبرت فى رأى من عاصروها مأساة حقيقية. فأطرافها بشر أحبوا السـلطة والحكم أكثر مما أحبوا أنفسـهم، بل إن جنون العظمة الـذى كان أكثـر ما يميز شـخصا كالحاكم بأمر الله يبـدو فى كثير من الأحيـان جنونا مفتعلا اصطنعته الظروف والانفراد بالحكم الذى جعل منه ذلك الشخص الذى يأمر ليطاع.

ويروى د/ حسـن إبراهيم حسن فى «تاريخ الدولة الفاطمية» القصة من وجهة نظره.

فقـد اختلفت الروايـات فى وفاة الحاكم، فيقـول بعض المؤرخين إن أخته سـت الملك بالفعل من دبرت قتله لسـوء تصرفه، فاتفقت مع سيف

الدولة بن دواس أحد شيوخ كتامة علــى اغتياله وقالت له: «لى إليك أمر لابــد لى فيه من الاجتماع بك، فإما تنكرت وجئتنى ليلا أو فعلت أنا ذلك فقــال: أنا عبدك والأمر لك. فتوجهــت إليه ليلا فى داره متنكرة، ولم تصحب معها أحدا.

فلمــا دخلت عليه قــام وقبل الأرض بين يديهــا دفعات ووقف فى الخدمة، فأمرته بالجلوس وأخلى المكان.

فقالت: يا سيف الدولة! قد جئت فى أمر أحرس به نفسى ونفسك والمسلمين، ولك فيه الحظ الأوفر، أريد مساعدتك فيه.

فقال: أنا عبدك فاستحلفته واستوثقت منه، وقالت: أنت تعلم. ما يقصــده أخى فيك، وإنه متى تمكن منك لم يبق عليك، وكذا أنا، ونحن علــى خطر عظيم. وقد انضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الألوهية وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه وقد زاد جنونه.

وأنــا خائفة أن يثور المســلمون عليــه، فيقتلونــه ويقتلوننا معه، وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء.

فقال ســيف الدولة: صدقت يــا مولاتنا، فما الــرأى. قالت: قتله ونستريح منه.

فــإذا تم لنــا ذلك أقمنا ولــده موضعه وبذلنا الأمــوال، وكنت أنت صاحب جيشــه ومدبره، وشــيخ الدولــة والقائم بأمره. وأنــا امرأة من وراء حجاب وليس غرضى إلا الســلامة منه. وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة.(١١)

ثـم اتفقت مع عبدين على قتله عنـد خروجه إلى جبل المقطم، فظلا يرقبانـه إلى أن قـرب الصبـاح، فوثبا عليه وطرحاه أرضـا وقتلاه، ثم حملاه إلى ابن دواس، فحمله مع العبدين إلى أخته ست الملك فدفنته في مجلسـها. وكان ذلك في ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر شوال سنة ٤١١هـ.

وهنـاك رواية أخرى تقـول إن الحاكم خرج فى هـذه الليلة راكبا حمارا، وبصحبته رجلان. وإنـه اختفى عنهما ولم يعثرا له على أثر. فقام بعض رجال الدولة وقضاتها،وأخذوا فى البحث عنه، فعثروا على الحمار الـذى كان يركبه مقطوع اليدين. ثم تابعوا السـير حتى وصلوا إلى بركة شـرقى حلوان، فوجدوا فيها ثيابه: وهى سبع جباب مزررة وفيها أثر السـكاكين.. ثم ظهر رجل من الصعيد وادعى انه قتل الحاكم واعترف بذلك.

ولما سئل عن سبب قتله قال: قتلته غيرة لله والدين. فقيل له وكيف قتلته؟ فأخذ سـكينا وضرب بها قلبه وقال: هكذا قتلته، ولم يلبث أن خر صريعا وتوفى.

ليعتقد الدرزية أن الحاكم اختفى فى سـنة ٤١١هـ، وإنه سيعود إذا زالت المفاسد المنتشرة فى العالم.(١٢)

وبرغـم أن الروايات حول حقيقة موقف سـت الملك تختلف إلا أن الوقائع التاريخية لا خلاف عليها. فالحاكم بأمر الله فى سـنه الصغيرة بدا غير ناجح فى التعامل مع أمور الحكم.

فعندما تــولى ثار عليه الكتاميون وهم شــعبة من الجند قامت على أكتافهــم الخلافة الفاطمية، ولهذا لم يكن من الصغير إلا أن اســتجاب لهم وأعطاهم فوق ما يتمنونه حتى إنه فى المقابل أبطل أعطيات الجنود الأتــراك. وهو ما أثارهــم على الكتاميين المغاربــة الذين لم يكتفوا بما حدث وزادوا فى الأمر. لتدور عربة جهنمية من التنافس كان نتيجتها تولى برجوان الوزارة وانفراده بالسلطة.

وهــو الأمــر الذى لم يرض عنه أبــدا الحاكم حتى ولــو اعتبرنا أن برجوان قد نجح بالفعل فى أن يكون من أقرب الناس إليه.

ولهــذا دبر الحاكــم مكيدة للتخلص من برجــوان فقتله فى حديقة منزله. وليصبح الحاكم بعد هذا حرا طليقا يفعل ما يشــاء بشئون مصر وليظهــر تخبطا فى القرارات. فهو متعصــب لمذهبه لا يرى صلاحا فى غيره، وقد جعل اليهود والنصارى يلبسون الشارة التى يعرف بها غير المسلمين.

فقــد كان الحاكم بأمر الله الذى يقول عنه المصريون اليوم إنه قد منع أكل الملوخية، وإنه جعل الناس تنام نهارا وتعمل ليلا ليس إلا صاحب سياسة متذبذبة تجعل حتى أقرب المقربين إليه عرضة لضغوطه التى لم يعرف أحد الفكاك منها فقد كانت قراراته ليســت إلا صورة مصغرة من اضطراب الحياة من حوله.

فالجند يطلبون العطايا والوزراء يعملون لمصالحهم الشخصية وهناك تهديد عسكرى من حدود مصر الغربية يتزعمه قائد يدعى أبو ركوة يعتقد فى قرارة نفسه إنه أحق بمصر وزرعها ونيلها وخاصة إنه وكما أذاع من سلالة أموية كانت تحكم الأندلس.

ويبدو الحاكم بأمر الله لغزا يصعب تفسيره حتى ولو تطلب الأمر منا اقترابا أكثر من المشهد السياسى والاقتصادى والاجتماعى لبر مصر. فهو برغم كل هذه التصرفات التى تحسب عليه كان وفيا لفكرة إقرار الأمن والاستقرار فى ربوع مصر. ولم يحدث فى زمنه الكثير من الاختراقات الاجتماعية للمجتمع الذى كان يعالج تصرفاته بإطلاق النكات على الحاكم الذى يأمرهم أن يلبسوا هذا ولا يلبسوا هذا.

أما عن علاقة ست الملك بالبيمارستان الذى عرف بين المصريين باسم بيمارستان قلاوون فهذه قصة أخرى تخرج من بطن هذه القصة وتستحق أن تروى. فالحقيقة أن بيمارستان قلاوون قد حل محل قاعة من مبانى القصر الغربى كانت تملكها ست الملك.وهذه القاعة بل والقصر بشكل عام انتقلت ملكيته فيما بعد إلى أميرين من بنى أيوب ثم من بعدهما الأميرة مؤنسة القطبية الأيوبية التى وهبها السلطان قلاوون قصر الزمرد فى مقابل التخلى عن هذا القصر.

فكانت هذه هى المرة الأخيرة التى يتداول فيها امتلاك المكان قبل أن يؤول أخيرا إلى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الذى قرر إقامة البيمارستان فى هذه الدار وإن بقيت القاعة على حالها فى بيمارستانه كشاهد على كل من سكنها.

ويحكـــى الرواة إن أهل مصر- بعيدا عن قصة هذا القصر الذى أصبح على حال وأمســـى على حال وســكنه الكثير من أولى الأمر- قد تعجبوا كثيرا من هذا البيمارســتان حتى أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عن سبب إصرار السلطان قلاوون على إنشائه.

إلا أن الســبب الحقيقى كان يدركه كل قريب من الســلطان قلاوون الـذى تعرض لمحنة صحية فى إحدى غزواته فذهب يتلقى علاجه فى بيمارســتان نور الدين بدمشق. فنذر إن أصبح يوما سلطانا على مصر أن يكون بها بيمارستان أفخم من ذلك الذى عولج به فى الشام.

والواقع أن كلمة بيمارســتان كلمة فارسية الأصل وتعنى مستشفى. وقد أنشــئ أول بيمارستان فى الإسكندرية وأنشئ أخر فى القاهرة وهو البيمارستان العتيق فى زمن الناصر صلاح الدين الأيوبى.

أمــا الســلطان المملوكــى قلاوون فيحمــد له نجاحه فـــى إقامة هذا البيمارستان الأشــهر فى تاريخ مصر الإسلامية فى شارع بين القصرين إلى جوار المدرسة الصالحية.

وهو يتكون من مجموعة متكاملة من أجمل فنون العمارة فى العصر المملوكــى، فهناك مدرســة وضريح إلى جانب البيمارســتان الذى يقف شاهدا على ذلك الزمن البعيد.

وقد تم لـــه ما أراد وتولى أمر مصر وانتهى من مبناه الضخم فى مدة لاتتجــاوز العامين حتى إنه يقال إن الناس كانوا يتعمدون الاختفاء فى بيوتهم مخافة التعرض للسخرة لبناء هذا البيمارستان.

فقد ذهب الحلم والطموح بقلاوون أبعد مما كان فى نفســه فتجاسر علــى هدم قلعة ســيده الصــالح نجم الدين أيــوب - والــذى كان آخر الأيوبيــين الذين حكموا مصر وتعمدوا الإكثــار من جلب المماليك حتى تهيأت الظروف فيما بعد لكى يحكموا مصر بشكل منفرد - فى الروضة واستعان برخامها الفخيم فى بيمارستانه.

وقد حدد قلاوون أقســاما بالمستشــفى حيث تعمد الترتيب والإعداد الجيد له فأصبح هناك قسم للجراحة وقسم للرمد وقسم للنساء.

وأضــاف إليهم مكتبــة وصيدلية ومطبخا ومعامــل بل وكما يحكى شحاتة عيســى فى كتابه «القاهرة» جوقة موسيقية تخفف آلام المرضى وخمسين من القراء يرتلون القرآن الكريم.

ويعتبر هذا البيمارستان وبكل المقاييس تحفة فنية تختص بشبابيك وآيات قرآنية وأعمال الرخام. وهذه الأعمال مازالت موجودة وقائمة إلى الآن وتشير إلى الزمن الجميل الذى كان، وإن كان قد تحول جزء من هذا البيمارستان بعد سنوات يصعب عدها إلى مستشفى قلاوون للرمد ليعاود دوره من جديد فى شفاء المرضى.

وهل كان قلاوون نفسه يعلم أن هذا المستشفى سوف يعيش أكثر مما يتصــور وأن مجموعته قد تكون بحق أكبر حســناته فى الدنيا والأطول عمــرا بين كل أمجــاده. أم أن هذا المكان قــد أراد الله تعالى له أن يكون شاهدا على لعبة السلطان فى مصر بكل تفاصيلها الجيدة والسيئة؟!

فى سبيل الخير

قصص وصور من قريب لأماكن عاشـت فى بـر مصر مدعمة ببركة الله تعـالى وبأفكار تدعو للخير والصلاح وتتذكر معنى التقوى ولدت فى شهر رمضان المبارك وتكاتف على تحقيقها المصريون والمتمصرون الذين اختاروا بر مصر المحروسة.

عطشان يا صبايا

كان إذا ما أهل هلال رمضان لا يعرف الناس السكون، ولو للحظة من ليل أو نهار في المساجد والكتاتيب.

فإذا كانت قباب المساجد ومآذنها وورع الناس والإخلاص في الصلاة أشياء مفهومة في هذا الشهر المبارك.

وإذا كانـــت حركة التجارة والبيع والشـــراء والرائـــح والغادى هى تعبير عن نمط الحياة اليومية في الأزقة والحارات الضيقة.

وإذا كانـــت الكتاتيب هى فى الأصل أمكنـــة مباركة لا ينقطع فيها تعلم معانى سور القرآن الكريم وقواعد اللغة العربية لتحفيظهما لصغار المســلمين... فإن الأسبلة كانت شيئا آخر بالنسبة لكل من سكن القاهرة العتيقة.

ففى الإســـلام هناك قاعدة تقول «لاضرر ولاضرار».. وهناك تفســـير مصرى حـــول واحدة من خير الأعمال وهى بـــر الناس واعتبر من البر ســـقاية العامة والدواب على وجه التحديد فهى صدقة جارية حتى بعد رحيل صاحبها.

فبقدر من يســـتفيدون من الســـبيل بقدر ما يكتب لصاحبه حســـنات عند ربه.

وقبل أن ندخل فى تفاصيل كثيرة تهمنا يجب أن ننتبه إلى أن هناك مبدأ كان يحكم عصر الأسبلة والكتاتيب كانت تلتزم به شوارع القاهرة على طولها وعرضها.

طابـع يمكن أن نصفه بالرغبة فى التجويد والمنافسـة من أجل بلوغ الأفضل.

فإذا نودى للصلاة سمعت أصوات المؤذنين تتنافس بين مآذن المساجد وقبابها ليحصلوا على بركة حلاوة الصوت وتجويد القرآن الكريم.

وعندما يدعو خليفة أو حاكم لبناء مسـجد أو خان أو وكالة أو حتى منزل يتنافس البنـاءون والصناع فيما بينهم لإخـراج أفضل ما عندهم لبلوغ درجة مشهودة من الرقى والجمال.

ولو حدث وقرر أحدهم أن ينفق شيئا فى سبيل الخير تنافس الناس فيما بينهم ولهذا ولدت هذه الأسبلة.

أما عن التاريخ الذى ولدت فيه هذه الأسـبلة فقد أشار إليه أكثر من باحث ومؤرخ وكاتب ومحب للفنون الإسـلامية الراقية ومن الأمثلة ما كتب فى موسـوعة «مدينة القاهرة فى ألـف عام» للدكتور عبد الرحمن زكى الذى كتب يقول:

كان السبيل فى الأصل ملحقا بأحد أركان المسجد ليشرب الناس وفى أغلب الأحيان كان يعلوه مـكان لتحفيظ الأطفال القرآن الكريم ويعرف بالكتـاب ثم أصبحت هذه الأبنية فيما بعـد منفصلة كما هو الحال فى القاهرة.

وقد اهتم سـلاطين المماليك وأمراؤهم بإنشاء أسبلة للناس وأحواض السـقى للحيوانات فى مختلف مواضع المدينة. ويقوم بتسـبيل الماء فى السـبيل «المزملاتى» الذى يؤدى عمله فى الأوقـات المحددة فى الأيام العادية وفى شـهر رمضان. ولايزال بالقاهرة القليل من الأسـبلة التى شـيدها المماليك وفيها ثلاثة أسبلة شـيدت قبل القرن السابع عشر. أما ما شيد من الأسبلة فى القرن السابع عشر فعددها ثلاثة وثلاثون، وعدد ما شـيد منها فى القرن الثامن عشـر فثلاثة وثلاثون أيضا. وفى القرن التاسـع عشر شيد ثلاثة عشر سبيلا فقط. ومن المحتمل أن ما شيد منها فى أوائل القرن العشرين لا يزيد على أربعة.(١٣)

أما ولماذا شـهدت هذه الأبنية هذه الطفرة فى التوسـع والإنشاء فى القرنين السـابع عشر والثامن عشر وبدأت فى الاندثار فى القرن التاسع عشـر حتى وصلت إلى أربعة أسـبلة فقط فى بداية القرن العشرين؟ فإن الإجابة وبلا شك تتعلق بحركة الحياة فى بر مصر.

فقـد ابتكرت الأسـبلة وسـادت فى زمـن كانت السـقاية فيه هى الأسـاس للحصول على مياه للشـرب حتى إذا ما بدأت الحياة تختلف وأظهرت المدنية الحديثة قدراتها بعد عصر محمد على بدأت الأسـبلة فى الانقراض وفتح الطريق أمام سبل أخرى للحصول على مياه نقية.

والأسـبلة وبرغم أهميتها المعمارية والفنية، حيث إنها فى الأصل واحدة من حلقات العقد الفريد للعمارة الإسلامية الذى يضم الخانقاوات والخانات والأسـواق والمدارس والبيمارسـتانات، التى لا تقبل الجدل

ولدت أيضا لتنفى ما أشيع من أن العمارة الإسلامية قد خلت من المبانى العامة كما يجادل وبقوة عالم الحضارة الكبير د/ ثروت عكاشة.

فالسـبيل قد حل محل المسارح والملاعب التى كان يتنافس الموسرون اليونانيون والرومان فى الإنفاق عليها.

وبرغم أن هذه المقارنة تبدو ظالمة فى رأيى، حيث إن الثقافة المصرية قد نست المسـارح والملاعب الرومانية باسـتثناء نمانج بسيطة مازالت موجودة فى شمال مصر وبخاصة فى الإسكندرية.

إلا أن فكرة الإنفاق مازالت هى المسـيطرة وإن كان الإنفاق على سبل الخير هو الأساس فى القاهرة العتيقة.

وهكذا عاشت الأسبلة فى كنف المساجد والمدارس والخانقاوات حتى بلغت أشدها وأصبحت مبانى قائمة بذاتها ولا حاجة لها فى رعاية من مسجد أو مدرسـة. بل إن المماليك قد جاءوا يؤكدون هذه الفكرة وأصبح من البر قصد السـبيل فى حد ذاته. فذات السـبيل التى كانت ومازالت طفلة فى بدايات العهد بالعمارة الإسـلامية قد اكتنفها شىء من الزهو وأصبحت شابة تعيش بدعم المجتمع المصرى.

وبمـرور الزمن ألحق بها بناء لتحفيظ القرآن الكريم، وهو ما يعنى أن شكل الشوارع والحارات المصرية قد أعطت للأسبلة امتياز الاستمرار. فصحيح أن ضيق الشوارع وتقارب المنازل قد منحا الشوارع المصرية ميزة خاصة تجعل أى عابر سبيل يحتمى بالظلال الوفيرة.(١٤)

إلا أن وجود هذه الأسـبلة كان تعويضا آخر عن قيظ القاهرة الذى لم يكن يهدأ إلا فى بدايات الخريف وبداية أوان البلح الأسـود الذى يؤكد للمصريين أنه قد حان موعد انكسار الحرارة.

وقبل أن نقفز بالزمن بعيدا نعود مرة أخرى إلى شهر رمضان فى هذا الزمـن الجميل حيث تقص علينا الموسـوعة المصرية «تاريخ وآثار مصر الإسـلامية» كيف كانت تعمل الأسـبلة من وقت المغرب حتى السحور وكيف تمتعت بالإنفاق عليها.

أما الواقفون فكما تقول الموسـوعة فكثيرا ما اشـترطوا فى المزملاتى شروطا جسيمة كأن يكون سـالما من العاهات والأمراض وخاصة الجذام وأن يسهل الشرب على الناس وأن يعاملهم بالحسنى والرفق.

أما الأدوات المسـتخدمة فكانت حبالا مـن الكتان والليف والبخور وأباريق النحاس وقلل الفخار.(١٥)

وقد يتعجب البعض، فمصر بلد النيل الذى كان يملأ البلاد بالخير والخضرة فكيف يقسـو على القاهرة مدينة المعز الجميلة. ولكن الواقع يقول إن السـقاية كانت حرفة شـأنها شـأن كل الحـرف والصناعات الأخرى. وكان الماء فى هذا الزمن سلعة تباع وتشترى.

وكان من عادة السـقايين أن يحملـوا القرب على ظهورهم ويتجهوا إلى بيوت دون غيرها ليمدوها بالماء الذى كان يحفظ فى الأزيار والقلل، وكان هذا المشـهد هو أحد المشاهد الأساسـية فى حياة القاهرة العتيقة وحتى العصر الحديث. وهذا يعنى أن الماء لم يكن متوافرا للعامة ولهذا

أنشــئت الأســبلة التى كانت عبارة عن صهاريج تحت الأرض أو أبيار تملأ بالماء حتى إذا ما انتهى عمرها جاء صاحب السبيل بغيرها.

والقاهــرة التاريخية كما يطلقون عليها اليــوم صاحبة أكبر نصيب من الأسبلة الشــهيرة والمهمة فى الوقت نفسه أمثال سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا ونفيســة البيضاء وسبيل قنصوة الغورى الذى كان ضمن مجموعته الشهيرة وسبيل وكتاب السلطان قايتباى وغيرها.

وهناك أيضا أســبلة ربما لم تنل نفس الحظ من الشهرة وقد نتعجب عندما نتعرف إلى أسمائها مثل سبيل خليل أفندى المقاطمجى الذى شيد فى القرن السابع عشر وسبيل إسماعيل مغلوى الذى أنشئ أيضا فى نفس القرن وسبيل حسين الشعيبى الذى بنى فى أواخر القرن الثامن عشر.

ويمكننــا أن نتجول فى القاهرة التاريخية لنقابل أشــهر الأســبلة وهو ســبيل أم عباس الــذى ولد عام ١٨٦٧م بشــارع الصليبة على يدى والــدة عباس ابن عم إسماعيل باشــا والتى تتميــز بخطوطها المعمارية والهندسية وسط الشارع الذى يضم الكثير من الآثار المهمة.

ويقع السبيل عند مفترق الطرق والأرض مكسوة بالرخام.أما الشبابيك فمن النحاس الأصفر وتنتشر الآيات القرآنية المكتوبة بالذهب. والسقف منقوش بالأصباغ الذهبية أيضا.

أما ســبيل ووكالة نفيســة البيضاءالمرادية التى تشغل ناصية عطفة الحمام، وأنشــئت عام ١٧٩٦م أى فى نهاية القرن الثامن عشــر فيقال – والعهــدة على موســوعة مدينــة القاهرة – إن هذا الأثر كان يشــغل

قيسارية القاضى الفاضل وكان يباع فى هذه الوكالة الشمع والمكسرات والقماش والسكر فعرفت السوق باسم السكرية.

ويتضح التأثير التركى فى الأسبلة وواجهة السبيل بها تشابيك نحاسية ونقوش وزخارف أسفل عقود دخلات التشابيك وهى محفورة فى الحجر.

والمعروف أن نفيسة كانت زوجة مراد بك آخر حكام مصر من المماليك الذى فر من أمام قوات الحملة الفرنسية وكانت من أفضل نساء المحروسة. ومع هذا لا يمكن اعتبار سبيل أم عباس ونفيسة البيضاء أشهر الأسبلة التى أوقفتها النساء فهناك أمثلة أخرى مثل سبيل عائشة هانم بدرب الجماميز التى أوقفت عليها أوقافا خاصة بها وحدها.

وأما سبيل وكتاب عبد الرحمن كتخدا الشهير الذى بنى عام ١٧٤٢م ويقع عند تقاطع شارع المعز مع شارع التمبكشية حيث مدخل السبيل تصفه موسوعة القاهرة بأنه كأثر له ثلاث وجهات بها ثلاث فتحات بمفردها من الرخام الملون وضع لها شبابيك نحاسية جميلة، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من الخشب نقشت عليه كتابات باسم المنشئ وتاريخ الإنشاء وبحجرة السبيل رسم للكعبة المشرفة.

وإذا كان سبيل الأمير عبد الرحمن جاويش مستحفظان ابن المرحوم حسن كتخدا قد حصل على كل هذه الشهرة فإن هناك سبيلين لا يمكن تجاوزهما وهما سبيل محمد على بالعقادين وسبيل محمد على بالنحاسين.

ويقع سـبيل العقادين على رأس حارة الروم بالغورية وقد أنشـئت عـام ١٨٢٠م صدقة علـى روح ابنه طوسـون وواجهته نصـف دائرية ويتضح فيها التأثر بالفن الأوربى والواجهة مكسـوة بالرخام الأبيض. أما الشـبابيك فعددها خمسة ومصنوعة من النحاس المصبوب ويعلو كل شـباك لوحة رخامية تعلوها زخارف وتغطى السـبيل قمة من الخشب المغطى بألواح من الرصاص.

وفـى القاهـرة العثمانية بلغ عدد الأسـبلة ما يزيد علـى الثمانية والستين سبيلا.

يعـود الفضل فى وجود هذه الأسـبلة إلى حب الخير الذى لم يبرح أرض المصريـين. كما أن حداثة العهد بالآثار العثمانية قد جعل الكثير من هذه الأسبلة مازال ينبض فيه نبض الحياة.

فبرغـم أن الكثـير منها قد تعرض للنيران بسـبب حـرق الأوراق والمهملات فيه وبرغم اتسـاع نفوذ المناطق السكنية على حساب المناطق الأثريـة فى أحياء القاهرة فإن الجهود التى بذلها المصريون فى مراعاة هذه الأبنية التاريخية قد جعل الكثير منها يستمر برغم كل المضايقات والتوسعات التى تطرأ وتستحوذ على أجزاء من مساحاتها.

ويعتقـد عالم الآثـار محمد مصطفى نجيب فى بحثـه عن «العمارة العثمانية» أن التكوين المعمارى للسبيل فى القاهرة العثمانية لم يختلف كثيرا عـن القاهرة المملوكية إذ يتكون من ثلاث طبقات الأولى الصهريج وهو فى باطن الأرض لتخزين المياه.

والطبقة الثانية أعلى من مستوى سطح الأرض بها المزملة ويتصدرها سلسبيل يقوم بتوزيع المياه على أحواض الشبابيك.

والطبقة الثالثة عملت كمدرسة أولية (كتاب) لتعليم الأولاد القراءة والكتابة وتحفيظهم القرآن الكريم.(١٦)

ومـــازال الكثير يمكــن أن يروى عن الأســبلة المصريـــة... فمازلنا عطشى، وعطشــان يا صبايا دلونى على السبيل... كلمات كان المصريون يتغنون بها ولم يكن فى الأمر غموض فقد كانوا يقصدون أســبلة بعينها عندمــا كانوا يغنــون فى الماضى البعيد، وبعدهــا أصبحت هذه الأغنية الشــعبية مصدرا لإلهام المصريين فى ثــورة ١٩١٩م التى تعتبر من أهم ثــورات مصر الحديثــة التى كانــت تبحث هى الأخرى عن «ســبيل» الاستقلال بأرض مصر.



حكاية وراء مدرسة

في أحياء القاهرة التاريخية.. لاتزال هناك أكثر من مدرسة هجرت فلـم يعـد بها طالب علـم أو مدرس أو حتى مـن يحمل أمنيات خاصة بحضـور درس داخل هذه الجدران العالية فإذا اسـتوقفت أحد المارة وسألته لمن هذه الجدران لأجابك إنها للملك أو أمير اسمه بيبرس أو برقوق أوالسلطان حسن.

وإن كثيرا من الخلق كانوا يتعلمون بها فى الزمن الماضى، ولكنك إذا سـألت عن سـبب هجرانها والتزامها الصمت طوال هذه السنوات لن تجد إجابة... لأنها باختصار قصص تحتاج إلى قراءات خاصة.

فمنـذ رفـع الله تعالى قدر العلم فى أول سـورة نزلت على رسـوله ﷺ بأمر «اقرأ» والعلم حاجة شـديدة لكل مؤمـن. وقد وجد فى نهاية العصر العباسـى أن المدارس صارت ضرورة فأنشئت فى مدينة نيسابور الفارسية أول مدرسة.

فنظام الملك وزير السـلطان آلب أرسلان ومن بعده السلطان ملك شاه هو الذى اقتنع بفكرة وجود مدرسة وكان يقصد بها إرساء قواعد المذهب السنى فى مواجهة المذهب الشيعى.

ويقال إنه كانت هناك أربع مدارس فى نيسـابور فى عهد السلطان محمود الغزنوى.

وأما فى مصر فقد ولدت على أيدى صلاح الدين الأيوبى -رحمه الله بقدر ما أنقذ الإسلام والمسلمين. وإن كان بعض العلماء قد أكدوا وجود مدرسة بالقاهرة وأخرى بالإسكندرية قبل هذا بزمن.

إلا أن صلاح الدين جاء بمدرستين أولاهما الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص وخصصت للمذهب الشافعى. والثانية القمحية وخصصت للمذهب المالكى بل وأوقف عليها أرضا بالفيوم يزرع فيها قمحا ومن بعدهما استكمل إنشاء مدارس أخرى.

ومن المعتقد أن الدولة الفاطمية احتفظت بالمسجد كمكان ومعهد للتعليم ولهذا كان للأزهر الشريف دوره كمركز للتعليم منذ سنوات أصعب من أن تعد.

فالفاطميون كانت لديهم طريقتهم الخاصة فى التعامل مع العلم الذى كان غالبا ما ينصب على الدعوة ولهذا كان الأزهرالشريف هو خير من يحمل رسالتهم.

وبانتهاء الدولة الفاطمية كان عليه أن يترك مكانته لغيره حتى جاء السلطان المملوكى الظاهر بيبرس فأقر للأزهر مركزه الذى درست فيه الكثير من العلوم التى كانت ملء السمع والبصر وقتها مثل الطب والفقه والتوحيد. وهو ما يعنى أن الأزهرالشريف كمعهد علمى حصل على هذا الوضع مع مرور الزمن.

حكاية كل يوم:

أمـا عن نمط الحياة اليومية داخل هذه المدارس فقد كان يغلب عليه طابع الجدية. ويحكى د.سعيد عاشور فى «تاريخ وآثار مصر الإسلامية» إنه كان يلحق بهذه المدارس مساكن للطلبة والمدرسين.

وكان يراعـى فى تخطيطها وجود سـبيل ماء ومكتب لتعليم الأيتام السور المباركة للقرآن الكريم. وقد جرت العادة أن ينزل السلطان بنفسه من القلعة لافتتاح المدرسة. وهى مناسبة كانت تعطى الناس الفرصة فى الحصول على اللحوم والفاكهة والحلوى وملء القدور بشـراب الليمون الذى كان غالبا ما تمتلئ به فسـقية المدرسـة وكأنهم فى أحد أيام شهر رمضان الكريم.

وعلـى الرغم من طرافة هذا التعبير عـن الفرح والابتهاج فإن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد لأن السـلطان غالبا ما يعين للمدرسـة من يقوم بشئونها.

وأما الدروس فكانت تلقى على الطلبة وكانوا يتناقشون مع مدرسيهم فيما يلقى عليهم من علم.

وكان هنـاك المعيد الذى يعيد علـى أسماع الطلبة ما قيل فى الدرس وكان يشـرح لهم بالإضافـة إلى هذا ما يصعب عليهـم فهمه. وقد ترك المجال مفتوحا أمام الطلبة ليختاروا ما يدرسون.

وقد ساعدهم على هذا وجود خزانة للكتب يقوم عليها خازن يقودهم للمعرفة الحقيقية.

واذا كان للخـــازن مكانـــة فما بالنا بمكانة المـــدرس الذى كان يملك وضعـــا خاصا وكان يحصل على راتب شـــهرى إلى جانـــب ما قرر له من طعام. وكذلك الأمر بالنســـبة للطلبة وإن كان هناك اختلاف فى منح كل منهم نصيبه.(١٧)

وتبقى أغرب الحكايات وأجملها هى التى تتعلق بمدرســـة السلطان حسن التى مازالت تحتل موقعها فى ميدان صلاح الدين تجاه القلعة.

أمـــا جدرانها فهى أعلى جدران يمكن أن تجدها فى مدرســـة. فهى كما وصفها د/ ثروت عكاشة فى «القيم الجمالية للعمارة الإسلامية» ذات قيمة فنية عالية. ولقد ســـاد فى أوربا منذ عصر النهضة أن العمارة ذات القيمة الفنية العالية هى تلك التى تجمع بين الضخامة والاتساق والوحدة الزخرفية، وفى كثير من الأحيان تضاف إليها الرصانة والجلال.

ولا شك أن ضخامة البناء فى العمارة الإسلامية كانت عنصرا شائعا فيها. فجامع السلطان حسن ومدرسته يهول الناظر لفرط ضخامته. حتى كان السلطان حسن نفســـه يفاخر بأن إيوان مدرسته يفوق عقد «المدائن» ارتفاعا، مما يؤكد الانطباع لدى زائرها بأن ضخامتها لم تأت عفوا.

وتستمد مدرسة السلطان حســـن جمالها من رافدين، بنيانها نفسه وما يحتويه من قيم معمارية، والمقياس الإنسانى.

إنهـــا قطعة من الفـــن المعمارى الجرئ يغنى تأملـــه عن الإفاضة فى وصفه.ولعلـــه أكمل أثر خلفته لنا مصر الإســـلامية. وأجدر صرح يمكن مقارنته بآثار مصر الفرعونية من الدولة القديمة.

يقول عنـــه المصور أوجين فرومتان: إنـه درة من أنفس ما جادت به عصور الحضارة العظيمة من مبان، وما أشــبه قوله هذا بعبارة السلطان ســليم الأول الشــهيرة حين وقع بصـــره على هذا الجانــب من الجامع الذى أقيمت عليه المدرســـة فى مواجهة قلعة صلاح الدين المشــرفة على القاهرة: «لعمرى ما هذا البناء إلا قلعة منيعة».

وما أصدق جاستون فييت حين وقف فى نفس الموقع وأخذ يردد وهو ينقل البصر بين قلعة محمد على ومدرسة السلطان حسن: «إن مَن يتأمل البناءين تبدو القلعة فى عينه جاثمة تستعد للوثوب والانقضاض، على حين تبدو المدرســـة هادئة ســـامقة متعالية ترنو للقلعـــة المتحدية فى شموخ الواثق دون مبالاة».

إننا لا نملك تجاه هذا الأثر الفريد إلا أن نحس أننا نحيا سيمفونية كاملة، اشترك فيها الأوركسترا بكافة عناصره فى عناية ودقة بالغتين. وبإحساس مرهف مدرك للفروق مهما دق شأنها.

فليســـت هذه التحفة الموســـيقية مجرد تآلف بـــين عدد محدود من النغمـــات أو ربط بين مجموعة محدودة من الألحان فحســـب، بل إنها شىء يفوق ذلك كله، وبفضل جاذبية التوافق الهارمونى وسحر التوزيع الأوركسترالى يرتفع العمل ككل واحد إلى ذروة التعبير الفنى.

فقـــد عرف المعمارى كيـــف ينقل تأثيره إلى أعمـــاق النفس بإخضاع العناصـــر الزخرفية للمفهـــوم المعمارى ككل بحيث تصبـــح خادمة له ساعية بين يديه.(١٨)

والواقع إن هذه السيمفونية الجميلة كانت للسلطان حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون إن حياته نفسها لغزا. فقد تولى حكم مصر لفترتين أولاهما تزيد على الثلاث سنوات وثانيتهما تزيد على الست سنوات.

وفى عصره ازداد نفوذ المماليك الجراكسة فقرر أن يبنى هذه المدرسة على الرغم من الأوضاع السياسية القلقة ليتفوق إيوانها على إيوان كسرى. وليبرز الضخامة مع الرقة فى فن الحفر على الحجر وبراعة وتميز أعمال الرخام.

وتعتبر كسوة مداخل المدرسة الأربعة - كما تقول كتب العمارة - من الصحن وأعتاب الأبواب أكبر دليل على دقة أعمال النجارة الإسلامية حيث إن تطعيمها كان مجسما ومثلا رائعا لأجمل الأبواب المكسوة بالنحاس.

وقد روى عنها إنها لم تكن مجرد مدرسة عادية فقد لعبت أدوارا كثيرة، وخاصة إن الناس قد تعودوا فى عهد المماليك أن يصعدوا إلى المنارة ويرموا القلعة بالسهام. ولهذا قرر السلطان برقوق أن يهدم السلم المؤدى إلى المنارتين. فكان المؤذن يرفع الأذان من باب المدرسة حتى جاء من يصلح هذا السلم.

ومدرسة السلطان حسن كان ينظر إليها بشكل خاص على أنها تحفة لم يعرف المصريون مثلها. ففى تاريخ العمارة الإسلامية هناك أساطير تحكى عن مساجد وخانقاوات وأسبلة ومدارس ولكن لا يوجد أسطورة يمكن أن تحل محل هذه التحفة الرائعة.

فهذه المدرسة قد خلدت اسم مؤسسها برغم أن أعماله العسكرية وأسلوب حكمه لبر مصر لم يكونا ليرشحانه لهذه المكانة. فقد كان ممن تولوا الحكم صغارا حتى إنه لم يكن تجاوز الثالثة عشرة من العمر عندما وجد سدة الحكم تسعى إليه راغمة.

وبالطبع وجد إن هناك الكثير من الطيور الجارحة تنتظره على عتبات عرشه لتتقاسم معه حكم مصر. ويذكر التاريخ إن منهم يلبغا روس ومنجك اليوسفى وشيخو العمرى وأرغون شاه الإسماعيلى.

توليفة من كل صوب وحدب تجتمع تحت مظلة الحكم المملوكى الذى سمح لكل الأطراف المتنافرة والمتعددة الثقافات أن تجتمع كلها تحت راية حربية واحدة.

فكان على السلطان حسن - الذى عرف به بين المقربين باسم قمارى - أن يسمح بتداول السلطة بين هؤلاء المماليك وأن يمنح كل منهم قطعة من الفطيرة المصرية حتى اشتد عوده وذهب يبحث عن أكثرهم خطرا لقتله أو الإطاحة به حتى تستقر له البلاد.

إلا أن هذا الاستقرار وعلى عادة عصره لم يكن إلا استقرارا مؤقتا قطعه استيلاء الأمير طاز على العرش. والمثير فى الأمر أن السلطان حسن لم يكن على عادة من قبله إذا انسحب منه بساط السلطنة كره الدنيا وزهد فى كل شىء، وأصبح يفكر فى أن حياته وحياة من حوله ليست إلاجزءا من هذا العرش الذى فقده فى يوم وليلة، فعلى العكس من هذا، اتجه السلطان حسن فى سجنه إلى أن يقرأ ويكتب ويحصل

العلـم الذى جعل هذه الدنيا فى عينيه واسـعة حتـى ولو ضاقت عليه أبواب السـجان فانخرط فى سـلك العلم حتى أتاه جواب الأمير شيخو سريعا بعزل السلطان الجديد وإعادته إلى العرش.

ربما يعتقد من يقرأ أن ما حدث مجرد خطب طارئ إلا أن السـلطان حسـن كان فى حياته القصـيرة أبعد ما يكون عـن التوفيق فما لبث أن ثـار عليه بعض مماليكه المقربين الذين كان قد بدأ معهم رحلة الحكم. ومرة أخرى يوقع به أحد مماليكه وهو يلبغا ليختفى السـلطان وإن كان الاختفـاء هذه المـرة كان الثانى والأخير. فحتى فى تلـك الأيام كانت المعجزة تحدث مرة وبالتأكيد لا تحدث مرة أخرى.

وبرغـم هذا تعتبر هذه المدرسـة هـى الأفخم فـى التاريخ المصرى للإسـلام إن صح التعبير. فالوسـطية والاعتدال الدينى قد فتحا الباب لتدريـس المذاهـب الأربعة الشـافعية والحنفية والمالكيـة والحنبلية وبنفس درجة القبول بين المصريين.

وهناك معالم رئيسـية فى هذه المدرسة، وهى القبة الضريحية التى أراد السـلطان حسن برغم سنوات شـبابه البكر أن يعدها لتكون مثواه الأخير وكأنه كان يدرك أو يشعر بشكل لا يقبل الشك أن أيامه فى هذه الدنيا بأسـرها معدودة ولهذا أقام قبة ضريحية واضحة المعالم ومغسلا كان قد أسـس ليتناسـب مع الحياة المصرية. فكثيرا ما كان يهاجم وباء الطاعون الأراضى المصرية ويحصد أرواح المئات من أهل البلاد.

وبشـــهادة علماء الآثار توجد أربعة إيوانات للمدرسة. أولها إيوان القبلة من الناحية الجنوبية الشـرقية ويطل عليـــه بعقد نصف دائرى ضخـــم يعد أكـــبر عقد لإيوان فى العمارة الإســـلامية قاطبـــة ويضم هذا الإيـــوان أسمى آيـــات الفن الإســـلامى عامة. فجدرانه مغشـــاة بالرخام والأحجـــار الفاخرة الملونة وبدائرة إطار جصى به كتابات كوفية مورقة لسورة الفتح ويعد واحدا من أجمل ما أبدعته يد الفنان المسلم فى عمارة مصر الإسلامية.

وفى الجانبين الشمالى والجنوبى لجدار القبلة بابان مكفتان بالذهب الخالص يؤديان إلى القبة الضريحية.

أما الإيوانات الثلاثة الأخرى لهذه المدرسة فتجاور كل منها مدرسة من المدارس المذهبية المعروفة. فتجاور الإيوان الغربى مدرسة الحنابلة والإيوان الشـــمالى مدرســـة المالكية وعلى جدرانها كتابات كوفية نصها بعد البسملة قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [سورة الحج آية: ٤١].

وتجاور الإيوان الجنوبى مدرســـة الحنفية وهـــى من أكبر مدارس المنشأة على الإطلاق. وتكون كل مدرسة من هذه المدارس وحدة معمارية كاملة ومستقلة تشـــتمل على صحن تتوسطه فسقية، بالإضافة إلى إيوان وثلاثـــة طوابق تضم غرفا للطلبة والمدرســـين، ويطل بعضها على صحن المدرسة وبعضها الآخر على الواجهات الخارجية.(١٩)

ولايتوقــف الكلام عند هذا الحــد، فالقبة الضريحية كانت أكثر ما تعرض للاضطهاد.

فقد كانت القبة أكثر ما تعرض لضرب المدافع والسهام المملوكية. فقد اتســع زمن المماليك فى مصر حتى شــهد وجود السيف والرمح والسهم متزاملا مع المدافع الأحدث زمنا.

وبرغــم كل هذا التحامل والجفاء الذى تحمله هذا الأثر الفريد فإنه لم يعدم من يرأف بحاله.

وهكذا أصبحت هناك قبة جديدة برعاية حســين أغا الخازندار وقد كتب عليها قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [سورة آل عمران آية: ١٩٣].

وتســتمر مدرسة السلطان حســن ثابتة برغم الســنوات والحروب وتغير الوجوه والحياة.

تســتمر لتشــهد مرور الرحــلات الجوية التى تحلق فوق رأســها ومواكب سيارات الأجرة والملاكى والأتوبيسات تدور حولها.

تســتمر لتشــهد مع أهل البلد أياما حلوة وصعبة وتنجح برغم كل الظروف فى أن تحتفظ بلقب أفضل منشــأة إسلامية مملوكية تتفوق على إيوان كسرى، ولا أحد يعرف تحديدا لماذا عاشت مدرسة السلطان حسن كل هذا الزمن لتسمع فيها زغاريد الأفراح من جانب بعض البسطاء الذين يعيشون اليوم فى مصر المحروسة ولا يجدون مأوى لأفراحهم لقلة المال

والزواد، فيكتفوا بالاحتفال بعقد القران داخل هذا الصرح الضخم الذى لن يطالبهم بالأموال الطائلة التى تنفق من أجل ليلة واحدة هى ليلة العمر.

ولكن كيف كان كل هذا الفن الجميل؟ فهذا الفن منسوب فى الأصل للسلطان حسن الذى صعد إلى عرش مصر مرتين ولم يستطع خلال فترة حكمه القصيرة والمتلئة بالقلاقل والاضطرابات أن تكون له بصمة تذكر.

فلولا هذه المدرسة لما تذكره الناس. فقد نجحت ببساطة هذه القناديل والمشكاوات المذهبة فى أن تسجل اسمه بماء الذهب.

إلا أن أكثر ما يحيرنى وأكثر ما يثير فضولى هى متابعة الآيات القرآنية التى كتبت على جدران هذا الأثر بالإضافة إلى غيره من الآثار الإسلامية. فلنولينك قبلة ترضاها... والذين إن مكناهم فى الأرض... لا إكراه فى الدين.

فمن يقرأ هذه الأيات المباركة يعلم أن نصيب صاحب المكان تدل عليه هذه الآيات الكريمة.

فقد ولاه الله هذا المكان ليضم هذه المدرسة صاحبة المذاهب الأربعة، ومكنه الله تعالى فى الأرض لتكون له منارة تحمل اسمه ويتذكره الناس برغم فوات فرصة الحكم ومرور السنين ولأنه فى النهاية يعلم أنه لا إكراه فى الدين وأن مجتمعه المصرى كان ومازال يسمح بوجود الآخر دون ضرر ولا ضرار.

تنتهى قصة السلطان حسن التى تجعل الحزن يطاردنى عندما أكتب حكايته خاصة إننى أعلم أنه قد اختفى من ساحة الحياة وهو دون الثلاثين وإنه برغم هذا العمر القصير ولد ليكون ملكا ولتكون له قصة فى هذه الحياة ... سبحان الله.

الخانقاوات
بيت الدعاء فى الزمن الجميل

يحكى إنه في زمن بعيد بعيد.. كانت الشـوارع والطرقات في بر مصر تسـكن إذا ما سجى الليل فلا تكاد ترى من حولك إلا خيالا لظل يتحـرك حول ضوء مصباح خافـت أو حتى شمعة متواضعة لمن تتجافى جنوبهم عن المضاجع ويقضون ليلتهم في الصلاة والدعاء.

ولكن الأذن تسـمع قبل أن يرتفع صوت المؤذن في الفجر صوت ذكر خافت فهناك أصوات جميلة تسـبح الله تعالى هـى الأخرى وتصدر عن مكان قريب من إحدى الخانقاوات.

أمـا... وماذا تكون هذه الخانقاوات؟ فهذه حكاية تعود بنا إلى زمن ذى النون المصرى وابن الفارض والصوفية والمتعبدين.

ففى كتاب د.سـعاد ماهر «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» تعتقد الكاتبة أن المسـلمين بعد رسـول الله ﷺ لم يتسـم أفاضلهم في عصرهم بتسمية سـوى صحابة الرسـول ﷺ إذ لا فضيلة فوقها وقيل لمن أدرك أهـل العصر الثانـى سمى من صحب الصحابـة بالتابعين، وانفرد أهل الصفة المراعون أنفسـهم مع الله باسـم التصوف واشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة.

وهنـــاك رأى آخر حيث تنســب الصوفية إلى أهــل الصفة المنقطعين للعبادة والذين يصطفون فى نهاية مســجد الرسول ﷺ أما الرأى الثالث فيقــول إنه أخذ مــن كلمة الصفاء أو الصفاء الروحــى.. ويختلف الأمر فــى التفســير بين الناس كما تشــير الكتب إلا أن مــا نعتبره فى حكم المؤكد هو أن كلمة الصوفية والخانقاوات قد فسرها الجاحظ وابن بطوطة والمقريزى بأنها كلمة فارسية تعنى بيت العبادة والأكثر من هذا أن هذه الخانقــاوات ظهرت فى القرن الرابــع الهجرى ووصلت إلى قمة مجدها فى القرن السادس الهجرى.(٢٠)

وهناك أكثر من ســبب لظهور الصوفية فى هذا الزمن الذى اعتبرت من أهم مظاهره. ولهذا يكتب أحمد بهجت مفسرا ظاهرة التصوف التى انتشرت بين المسلمين فى كتابه: «بحار الحب عند الصوفية» فمن وجهة نظره يرى بهجت أن عصر الرســول ﷺ كان أشد العصور حبا لله تعالى فقد كانت نفس الرسول ﷺ صافية وكانت هناك أعباء نشر الدعوة وكان الجهاد هو رهبانية هذه الأمة الجديدة.

ومــرت أيام الله تعالى وانتقل الرســول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وحكم المسلمين بعده أبو بكر الصديق اللين الدمث الذى تحول إلى سيف صارم، حين بدأت مأســاة الردة، ثم تلاه عمر بن الخطاب الرجل الشديد الذى تحــول إلى رقة الحليم وحكم حكما ســيظل مثلا أعلــى لنزاهة الحكم البشــرى ثم عثمان بــن عفان وقتل والمصحف فى يــده، ثم على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وقتل على يد ابن ملجم.

واســتمرت الفتنة الكبرى وبعدها بتســعة عشر عاما قتل الحسين رضي الله عنه وأرضاه فى كربلاء. ودفعت الأهوال والفتن كثيرا من المســلمين إلى الفرار بدينهم والزهد فى الحياة العامة.

ويتوقــف أحمد بهجت عند مسـئولية على ابــن أبى طالب كرم الله وجهــه ونســبته للصوفية والتصــوف. فقد كان فى مــوت على كرم الله وجهه شــىء يثير الانتباه وبسبب عشقه للحق وحبه للإسلام غالى فيه الناس ونسبوا إليه ما لم يقله وتوسعوا فيه.

ويقال إن على زين العابدين بن الحســين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهم جميعــا وأرضاهم قد مقت ما يقال عن جــده وقال: «أيها الناس أحبونا حب الإسلام فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا».

وفى القــرن الثالث الهجرى ظهرت الكثير مــن التيارات الفكرية والصحيــح أن الإســلام دعوة حضارية ولم يكن الزهــد تكتيكا يقصد به ضــرب مجموعة من الأغنياء، بل عنصر داخلى من عناصر القيم فى هذا الدين.(٢١)

فبهجت فى هذا المقطع من كتابه الذى يشــبه قصيدة شــعر وضعها أحد كبار المتصوفة ينتقل فى يسر تيار الماء المتدفق الذى يشبه ماء النيل الســائغ الذى يعد لذة للشــاربين ليفســر ظاهرة التصوف بمنطقه الذى يحمل الكثير من قوانين الوسطية المصرية.

فلا يصطدم بأى حائل يجرم هذه الظاهرة أو يحملها فوق ما تحتمل. كما أنه فى الوقت نفسه لا يريد إلا أن يكون طوافا بعالم الصوفية دون أن يعطيها صفة التقديس التى يمكن أن يمنحها البعض.

فالصوفيــة فى رأيه حالة خاصــة ولدت فى ظروف خاصة وقدر لها الاســتمرار لأن الظروف التى سمحت لها بالوجود مازالت مستمرة بل مرشحة للاستمرار فى عالمنا الإسلامى.

إلا إنه فى الوقت نفســه يوجد رأى آخر فى تفسير الصوفية للكاتب الأمريكى شمس فريدلاندر فى كتابه: «رومى والدراويش الدوارة» الذى يرى أن معنى الصوفية تعنى بالفارسية عتبة الباب وتعنى بالعربية من يلبس الصوف وتعنى باليونانية الحكمة.

كمــا أن الصوفية فى أبســط تقدير هى المفتاح لفهم أشــعار ومفاهيم شاعر الصوفية الأكبر مولانا جلال الدين الرومى.

وهــو ما يعنى أن شمــس فريدلاندر الأمريكى الأصــل والذى دخل فى الإســلام من باب حب المتصوفة ومن باب حب شعر كبير المتصوفين مولانــا جلال الدين الرومى قد التزم منطقا يعكس العقلية الغربية التى تبحث عن تفسير دقيق للمفردات.

وأمــا العالم الكبير ورائد علم الاجتماع ابــن خلدون فيعتبر أن علم التصوف من العلوم الشــرعية الحادثــة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل على ســلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين من العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليه الجمهور والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة إلى أن نشــأ الإقبــال على الدنيا فى القرن الثانى الهجرى وما بعده فســمى المقبلون على الله باسم الصوفية أو المتصوفة.(٢٢).

وهكــذا تتعدد الآراء إلا إنــه يظل الاتفاق على أن الصوفية كانوا فى بدايــة الأمر يرون أن توجههم هذا فرار من الله إلى الله فى دنيا اختلفت فيهــا المعايــير والقيم عن ذى قبــل واختلطت الأمور حتــى إن ما أقره المجتمع الإســلامى واصطلح عليه قــد أصبح مجالا للقيل والقال فى جو سياسى غلب عليه الاضطراب والفتن.

ولهذا تكتســب الخانقــاوات مكانة خاصة فى العصور الإســلامية اللاحقة التى شــهدت العديد من الأهواء والأنواء فصحيح أن الإســلام برغــم كل الأزمات كان لايزال ناضجا غضــا نافذا فى قلوب الناس. فإن البعــض ومنهــم هؤلاء الصوفية ذهبوا إلى شــىء أكبر مــن التعامل مع الأمــور بصبر مرغم. فقد أراد هــؤلاء أن يكون لهم مكانة مختلفة حتى فى المجتمع الذين يحيون فيه.

ومكانتهم كهاربين إلى الله كانت تستلزم منهم أن يعتكفوا بعيدا عن هذه الحياة، وأن يعتزلوا الكثير مما يشغل الناس أملا فى الحصول على شىء أكبر من متاع هذه الدنيا الفانية.

وهكذا ظهرت الخانقاه التى كانت تقوم فى الأساس بإيواء الصوفية والطلبة والغرباء المســلمين وكانت كل الصلوات تؤدى بإيوان خاص بها إلا أن صلاة الجمعة لم تكن تقام فيها.

ويســتطرد كتاب «خانقــاوات الصوفية فى مصر» فى شــرح طبيعة الحيــاة فى هذه الخانقاوات حيث يوجد شــيخ الخانقاه وإمامها وناظر وقفها ومدرســو المذاهــب ومعيدوهم والكحــال والجرائحى والطبائعى

وخـــازن الكتـــب وكاتب الغيبة والشـــاهد والمؤذن والمزملاتى ومشـــرف الحمام ومشـــرف المطبخ وخادم الشيخ وخادم الربعات الشريفة والبواب والفراش وسواق الساقية والوقاد ونحوهم..

وإن دل هذا الكم الهائل من الوظائف على شيء فإنما يدل على حجم ما كان في هذه الخانقاوات من وظائف متنوعة كان كل واحد من أربابها يتقاضى نظير عمله بالخانقاه أجرا نقديا راعى فيه الوقف أن يتناســب مع تراثه المالى ومقامه الاجتماعى، علاوة على ما كانوا جميعا يشتركون فيه من أجـــر عينى انحصر فى المأكل من الخضـــراوات واللحوم والأرز واللبن والعســـل والحلوى ونحوها، وفى الملبس والصابون وغير ذلك من الأرزاق الوافرة التى كانت توزع عليهم.(٢٣)

وفى مصر المحروســـة يذكر أن أولى الخانقاوات كانت خانقاه سعيد الســـعداء التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى وأوقف لها أوقافا .وتعد هذه الخانقاه أحجية تخص فى الأصل الأســـتاذ عنبر أحد القائمين بالخدمة فى عهد الخليفة المستنصر.

ويبـــدو أن هذا الرجل قد كان له من الطموح والنفوذ ما جعله يفكر فى أن يصبح شـــيئا مهما فى هذه الأيام، إلا إن هذا الطموح كان له قمة فى الوصول إليها ثم حق عليه بعدها الهبوط.

وهـــو المتوقع فى مثل هذه الحكايـــات المثيرة لتنتهى الحدوتة كلها بقتل صاحبنا عنبر وصلبه على باب زويلة.

فذهب عنبر وطموحـه وبقيت الدار التى سـكنها من بعده الوزير الصـالح طلائع الـذى يذكر بعض كتـب التاريخ عنه - بينما تشـكك أخرى - أنه أراد أن يدفن رأس الإمام الحسـين ﷺ وأرضاه فى مسجد أوقفـه لله تعالى، ولكن الخليفة الفاطمى رفض.فمن وجهة نظره لا تدفن الرأس الشريفة إلا فى قصر من قصور القاهرة الزاهرة وقد حدث ما أراد فدفنت فى أحـد القصور الفاطمية البهيجة الذى يحتل مكانه المشـهد الحسـينى الآن. ثم سكن هذه الدار من بعده الوزير شاور، والذى كانت منافسـته مع ضرغام أحد أسـباب الضعف الداخلى فى هذا الزمن حتى إذا ما جاء زمن صلاح الدين الأيوبى بعد انقضاء عهد الفاطميين فى مصر جعل الدار وقفا للصوفية ولقب شيخها بشيخ الشيوخ.

وبوقف هـذه الخانقاه على فقراء الصوفية كما يقول لنا على باشـا مبـارك فى «الخطط التوفيقية» بدأ زمن أخر منذ عام ٦٥٩هـ. فمن بعدها رتـب للصوفية طعاما وبنى لهم حماما فى نفـس المكان الذى عاش فيه كل هؤلاء الطموحون.

ولهذا توقف على باشـا مبارك طويلا أمام موقع هذه المدرسة وذكر إنها توجد تجاه حارة المبيضة من الجمالية على يمنة السالك من شارع الجمالية إلى المشـهد الحسـينى خلف قرة قـول الجمالية قرب جامع بيبرس الجاشـنكير. وقد عملها الملك الناصر صلاح الدين يوسـف بن أيوب خانقاه للصوفية سـنة ٥٦٩هـ. وأن بهـا أربعة ألونة وعدة خلاو للصوفية تحتها قبو دفن فيه بعض صوفيتها. وقد تغيرت بعض مبانيها

الأصلية وجعل بها منبرا وخطبة وهى عامرة إلى القرن ١٩ ، وتعرف بجامع الخانقاه وبسعيد السعداء وخطها يعرف. بخط الجمالية ثم أضاف أنه لما جدد الأمير يلبغا السالمى الجامع الأقمر، وعمل له منبرا وأقيمت فيه الجمعة ألزم صوفية هذه الخانقاه أن يصلوا الجمعة به. فلما زالت أيامه تركوا ذلك ولم يعودوا إلى الاجتماع بالجامع الحاكمى أيضا.(٢٤)

وبعدها انفتح الباب لتولد أكثر من خانقاه أمام أكثر من ساكن صوفى يتوق للعيش بها. فبنيت مجموعة من الخانقاوات فى منطقة صحراء المماليك والجمالية والسيدة زينب مثل خانقاه السلطان الأشرف برسباى، وخانقاه السلطان الناصر فرج بن برقوق فى صحراء المماليك، وخانقاه بيبرس الجاشنكير بشارع الجمالية، وخانقاه سنجر الجاولى بشارع مراسينا بحى السيدة زينب، وخانقاه وقبة شيخو بشارع الصليبة.

وقد اختصت هذه الخانقاوات بالكثير من الفنون الإسلامية الجميلة، وكيف لايكون هذا وقد شيد معظمها فى العصر المملوكى عصر البناة الكبار وفى زمن كان إنشاء أى منها يعتبر مفاجأة مملوكية للشعب - إن صح التعبير - فكان السلاطين والأمراء يقومون بوقفها وافتتاحها بأنفسهم فى احتفال مهيب.

ونعود إلى التميز المعمارى فنجدها تشتمل على الكثير من آيات التفوق ونترك مساحة الحكى للدكتور عاصم رزق الذى يشرح فى كتابه: «خانقاوات الصوفية فى مصر» كيف أظهر المعماريون تفوقهم

فى تصميم الداخل والخارج والمحراب والأرضية والنقش والكتابة فلم يكن هناك فرق يذكر بين تخطيط المسجد والخانقاه. وقد عمد المعماريون إلى إدماج المآذن بالواجهات على حد قوله بالإضافة إلى تجميل المآذن بالطاقات والكسوات التى كان يستخدم فيها القيشانى.

ويتطور الأمر ويدرس المسلمون بهذه الخانقاوات المذاهب الفقهية ويختص كل خانقاه فى زمن القرن الثامن الهجرى بمذهب. فقد كان فقه الإمام الشافعى يدرس بالخانقاه الجاولية والفقه الحنفى بالخانقاه الجمالية. بينما درست المذاهب الأربعة فى الخانقاه الشيخونية.

ويبقى أن نسأل هل استمر الحال على ما كان عليه فعاش هؤلاء الصوفية من غير قلق على طعام أو مسكن؟

فى الحقيقة إن هذا لم يحدث لأن كل شىء خلقه الله تعالى لابد له من بداية ونهاية أيضا. فقد هجرت هذه الخانقاوات بعد زمن من تغير الدنيا وحلت التكايا محلها فى العصر العثمانى .وإن كانت هذه الوريثة الجديدة اختلفت فى معمارها عن سابقتها.

فقد أصبح لهذه التكايا صحن به حديقة وفسقية تحيط بها إيوانات وتنتظم من حولها قاعات للدراويش على أن يكون هناك مسجد صغير وسبيل بكل تكية.

ومع وجود هذه التكايا اختلف الأمر عما كان. إلا أن الخير ليس له عصر بعينه.

فهذه التكايا قبل أى شيء نجحت فى أن تواصل المهمة الخيرة كما هو الحال فى تكية البكتاشية جنوب قلعة الجبل وهى منحوتة فى جبل المقطم وتكية الهنود المواجهة لمسجد أحمد كتخدا بالقرب من شارع القبانة.

ولتختفى بعد هذا بزمن التكايا أيضا وتستمر حركة الحياة برغم كل شيء وليبحث الناس على شيء آخر يوقفونه على الفقراء وليواصلوا الخير الذى بدأه الأجداد.

والحكمة فى النهاية تكمن فى حقيقة ألا ننسى ذكر الله. كما يقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [سورة الرعد الآيات: ٢٨ : ٢٩].

فذكر الله تعالى لا يكون فقط على مأدبة طعامنا حين نفطر فى الشهر المبارك، ولا يذكر فقط عند الشدة ليكون لكل منا دعاء عريض.

ولهذا فإن فرسان الخير لا يعدمون فى أى زمان ومكان الوسيلة لكى يسجلوا أسماءهم فى سجل الحافظين لدينهم... ولهذا فالأفكار تتعدد وإن كان الهدف فى النهاية واحد.



بيوت وحواديت

قصص قصيرة جدا

بيوت ولدت فى بر مصر ويبدو لكل منها حكاية خاصة

بيت السنارى
وحكايته الغريبة

في مواجهة جامع السيدة زينب... وبالتحديد فى حارة مونج يبدو للمارة بيت قديم متوار. هذا البيت هو بيت السنارى الذى يقبع في نهاية الحارة والذى لايزال أهل حى السيدة المبارك يتذكرون حكاية صاحبه إلى اليوم.

فقبــل نهايــة القرن الثامن عشــر.. وتحديدا فى عــام ١٧٩٤م قرر إبراهيم كتخدا الســنارى أن يســتقر فــى بيت خاص به فــى القاهرة الجميلة على عادة كبار التجار فى عصره.

ولأنه تاجر توابــل من أهل دنقلة... فقد أراد لهذا البيت أن يماثل بيوت الشهبندارات والتجار الذين التقى بهم فى القاهرة.

وكيــف لا يكون له دار تــدل عليه وهو القريــب إلى قلب مراد بك المملوكى حاكم مصر الفعلى فى هذا الزمن.

وبالفعل ومن هذا المنطلق.. يبدأ السنارى فى تنفيذ حلمه الذى اعتقد أنه سينســيه ســنوات الشــقاء التى مر بها والتى حاول فى أثناءها أن يتكسب قوت يومه ولو بمهن متواضعة للغاية أخذت من رصيده النفسى أكثر مما أعطت.

كما أنه في هذا الزمن الذى شـهد أفول دولة المماليك لم يكن هناك شيء واحد أو شخص واحد يشعر بالاستقرار فى مصر.

فقد تخلى المماليك عن دورهم الحربى منذ زمن وعاشـوا فى البيوت المصرية يحكمونها على طريقتهم.

فقليل منهم من شعر بالانتماء إلى هذه الأرض وكثير منهم من تجمد ورضـى لحياتـه بنمط رتيب فأغلـق على مصر وعلـى طموحه الحربى الأبـواب فى وقت كان العـالم يتغير فيه وأوربا تخطـو بل تركض إلى الأمام.

والسنارى كغيره ممن يعتقدون أن الحياة لابد أن تعطيهم ما يتمنون إذا نجحوا فى طرق أبواب السلطان وإيجاد ملاذ إلى جانبه.

فالمهم مرضاة مراد بك وحاشـيته لتتحقـق كل الأمنيات والذى كان هذا البيت واحدا منها.

وأخيرا ينجح السـنارى فى بناء هذا البيـت الفخيم ويدخل أخيرا داره ويغلق أبوابه ليأتنس بدفء الحوائط التى ربما تنسـيه أيام الشقاء إلا أن الأمل على ما يبدو ظل أملا لا يدرك.

فالبيـت الذى يعد تحفـة للناظرين والذى وصفـه لى وجدى عباس مفتش الآثار بالمنطقة عند زيارتى له يتكون من صحن أوسـط مكشـوف تحيـط به معظم غـرف وقاعات المنزل، ويتوصل إليه بواسـطة المدخل الذى يطل على حارة مونج ويليه ممر منكسـر لنصل إلى الصحن الأوسط المكشوف ومنه إلى المقعد الصيفى الذى يعلوه تختبوش.

ومعظـم الأجـزاء المهمـة فى البيـت واضحـة للزائر مثـل قاعة الاحتفـالات الشـتوية التى يعلوها ملقف الهواء وهـى حيلة معمارية يلجأ إليها المعماريون المصريون للاحتفاظ بالهواء المنعش فى الليل وأول النهـار داخل البيت للتخفف من وطأة الحر الشـديد كخزان للترطيب الذى يعد من أكبر ملاقف الهواء فى منازل القاهرة الإسـلامية ويوجد فـى الـدور الأول ويجاوره أيضا حمام على الطراز الإسـلامى. أما بقية الغرف فتعتبر غرف خدمات ومرافق.

والبيـت بمجمله لا يوصف فقط بأنه تحفة أثرية ولكنه فيما يبدو قد توفرت له كل الظروف لكى يكون تعبيرا عن لحظة فرح واستقرار لساكنه الذى أراد لهذا البيت أن يكون ملجأ له من ذكريات الماضى المرة.

وتحـدث المفاجـأة فبعد زمن قصـير وأيام أهون مـن أن تعد يدخل نابليون بر مصر غازيا لأراضيها وهو ما أصاب البلاد بحالة من الخوف والتأزم لم يعشها المصريون من قبل.

فينتشـر الرعب فى البلاد ويلجـأ الجميع إلى ديارهم التى أصبحت رمـزا لأرضهم المصريـة وإن كانوا مع هذا لايتنازلون عـن مقاومة هذا الغازى الجديد والذى جاء على غير موعد.

إلا إن نابليون وأمام هذا الرفض الشديد لوجوده لا يكتفى بغزو المدن المصرية فيقرر جيشه أن يغزو حتى البيوت الجميلة الآمنة ومنها بيت السنارى بالسيدة زينب.

فيستولى الفرنسيون على المكان ويرغمون السنارى على الخروج من بيته ليسكن العلماء المصاحبون للحملة البيت وخاصة العالم مونج الذى اختار أن تبدأ فيه التجارب والأبحاث التى ظهرت ودونت كملاحظات علمية فى موسوعة وصف مصر.

وهكذا وبين يوم وليلة يجد الناس هذا البيت قد أصبح مقرا للتجمع العلمي بعد أن يستقر فيه العالم مونج بهذه الكيفية، ويدخل البيت التاريخ بوجود هذا العالم الذى كان، وكما أشار كريستوفر هيرولد مؤلف كتاب «بونابرت فى مصر»، من أعظم الشخصيات تعددا فى الكفاءات فى تاريخ العلم.

فقد ظهرت موهبته الخارقة فى الرياضيات وأنشأ فرعا جديدا فيها وهو الهندسة الوصفية. وعمل فى لجنة الموازين والمقاييس والاستاتيكا الجوية واشترك فى تطيير البالون فى الجو وهو ما كتب عنه الجبرتى كثيرا فى «عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» أما اللجنة العلمية فكما تؤكد المصادر الرسمية أن لجنة العلوم والفنون كانت مؤلفة من ١٦٧ شخصا ترك اثنان منهم فى مالطة.(٢٥)

ونعود إلى السنارى الذى اعتبر ما حدث هو امتداد لسوء الحظ والتعثر الذى صادفه فى بداية حياته خاصة إن بيته كان ضمن ثلاثة بيوت وقع عليها الاختيار لتكون مقرا للمجمع العلمى الذى شهد الكتابات الأولى التى خطها العلماء الذين أصدروا كتاب «وصف مصر» الذى اكتسب موقعا تاريخيا غير مسبوق.

ويشاء الله تعالى أن يقاوم المصريون هذا الغزو الفرنسي ويثبتوا أنهم ليسوا مجرد رعايا لأية دولة تحكمهم وأنهم ليسوا مجرد أناس قد نسوا حضارتهم، ويستيقظون بين فترة وأخرى في شكل إفاقة مؤقتة تصنعها الظروف.

ويذهب المصريون أثناء مقاومتهم للفرنسيين لما هو أبعد من هذا ويثبتون أنهم ينتمون إلى أمة واعدة، ويصمد الرفض المصرى فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية بشكل يرغم الفرنسيين على الجلاء. وتخرج الحملة الفرنسية من عقر دار السنارى ويأتى الزمن الذى يكون لزاما عليه أن يقاتل من أجل استرداد بيته وهو ما يحدث بالفعل.

ولكن تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ففى العام الذى يشهد رحيل هؤلاء الغرباء عن بيته يشهد أيضا رحيله عن هذه الدنيا تاركا كل شيء وراءه.

فمن عجائب الأقدار أن يرحل السنارى فى نفس العام الذى أصبحت فيه الفرصة سانحة وكأنه بنى هذا البيت المدهش لغيره ولم يكن من نصيبه حتى ولو تصالح مع الدنيا كلها ولم يكتف بمداهنة مراد بك وحده من أجل حلمه الكاذب. ويموت السنارى ونتوقف عند هذا البيت الذى يحمل فى رأيى معانى شديدة المصرية.

فهذا بيت قد بنى فى نهاية الحكم العثمانى ليثبت أن منطق المدنية والمواطنة كانا موجودين فى القاهرة وقد تزينت بطابع مميز فى العمارة منذ وصول الإسلام إليها.

فبالاقتراب من المشهد وكما يحكى د/ ثروت عكاشة نجد أن اختيار

الخلفاء الفاطميين قد وقع على منطقـة الجمالية لبناء القصور، وكانت تبنى من حولها الدور.

فإذا كانت منازل الفسطاط تتألف من إيوانات تسبقها شرفات تحف بفناء مركزى مكشـوف يتيـح قدرا من الظل طوال اليـوم.. ففى عمارة منازل القاهرة من الطرز المعمارية فى بناء المنازل ما استغرق ستة قرون أوسـبعة ولكن أول ما يسـترعى انتباهنا هو الصحن الذى استخدم فى تكييف حرارة الجو. ذلك أن الهواء البارد يهبط إلى أدنى مسـتوى ليلا ثم لا يلبث أن يتسرب إلى الحجرات ويظل محصورا بين جدران الصحن حتى ساعة متأخرة من النهار وكأنه خزان للترطيب.(٢٦)

أما بالنسـبة لنظام المياه الجارية فقد كان ببعض الدور مياه ساخنة وبـاردة مثلما كانت عليه الحال فى الحمامـات العامة وقد ثبت وجود حمامـات بالفعل فى منـازل عديدة منها بيت السـنارى ولعل ما أقول يؤكد الخصوصية واللمسـات المصرية وليثبت أن بيت السنارى كان بيتا مرتفع المقام بين البيوت العادية

وفى النهاية نكتفى بهذه القصة الغريبة التى شهدها بيت السنارى وفى الحى الـذى دارت فيه الكثير من القصص والحكايات التى تحكى عن بر مصر.



بيت القصص والمفارقات

لا نملك في هذه الحكاية إلا أن نقلب الكف بالكف ونحن نحكي عن بعض تفاصيلها. فالحكاية وقعت في القاهرة العتيقة في زمن الاحتلال الإنجليزى وأبطالها ليسوا من الفلاحين أو المعممين أو المطربشين.

فالبطل وللعجب هو جاير أندرسون الطبيب الإنجليزى الذى جاء إلى مصر المحروسة والتحق بالعمل بالجيش وكان يتمتع بطبيعة مغامرة لا تعرف الاستقرار.

وهذا الرجل اللغز استطاع في بداية العشرينيات من عمره أن ينهى دراسته للطب بأسرع وقت ممكن حتى وكما يقول يتفرغ للحياة. ولكن هل تحتاج الحياة للتفرغ ولنغمة معينة من التفاهم؟!.

أعتقد أن السؤال نفسه قد واجه جاير أندرسون بعد سنوات طويلة من العمل وقد اعتزل كل شيء ليجلس خلف مشربيات بيت الكريتلية أجمل بيت في القاهرة العتيقة.

ونتوقف عند بيت الكزيتلية... فالمنزل قديم وهو ابن لقاهرة المعز وجار لمسجد أحمد بن طولون حيث لا يزال للتاريخ عبق وللمساجد شموخ وللمصلين مسك مصرى لا ينسى.

إلا أن هذا البيت الأسطورة له عبق خاص يرشح حكايته للاستمرار والتناقل عبر الأجيال.

فكما حكى لى حفيده ثيو: التحق جدى بالجيش المصرى وعمل لسنوات طويلة فى السودان والصحراء الغربية وتونس وليبيا، ولكنه بعد كل هذا قـــرر أن يعتزل وأن يهب ما تبقى له من عمر لهذا البيت فقد كان معروفا عن جدى حبه للتحف والفنون الإســلامية وعندما طلب أن يسكن فى هذا المكان كان يعرف فى قرارة نفســه أنه سيتركه ذات يوم للحكومة المصرية فأراد أن يترك للمصريين متحفا يحكى عن بلادهم الجميلة.

ويبــدو أن القاهــرة باحتمالها للقديم والحديث وبتجاور المســاجد العتيقة والحارات الشــعبية مع المبانـــى التى تتأثر بالطابع الأوربى قد أثرت فى نفس أندرســون منذ عــام ١٩٠٦م نفس عام وصوله إلى القاهرة وهو ما خطف قلبه وعقله.

وإن كان للماضى وكما يبدو نصيب أكبر من الحاضر الذى عاشه. فقد وقع فى هوى القاهرة العتيقة ولهذا لم يكن لفندق شــبرد الذى كان أول مكان ســكنه مكانة كبيرة لديه. فلم يعرف فى شــبرد معنى الاستقرار برغم احتفاظه بتفاصيل كلاســيكية أوربية كانت من الممكن أن تواسيه فى بعده عن وطنه.

فغرامه بتل يشكر يبدو للبعض وحتى أهالى حى الخليفة أحيانا غير مبرر فالأمر أكبر من ضخامة بناء مســجد ابن طولون وأكبر من الإطلالة المصرية التى عرفها فى وجه فتاة كانت تحتفظ بابتسامة وكأنها أطلقتها تحية لنور الشمس المصرية وهى تطل من شرفة منزلها.

وبرغم أن المشهد كان فى البداية يعتبر مجرد مشهد عابر فى عينى أندرسون فإنه قد كتب له الاستقرار داخل وجدانه حتى إنه بعد تسعة

وعشرين عاما من زيارته الأولى للمكان ومن اعتزاله كل مهامه العسكرية عاد يبحث عن منزل في نفس المكان المجاور لمسجد ابن طولون.

أمـا قصـص الدرويش والكلمـة للحفيد ثيو الذى جـاء إلى مصر ليشـارك فى ترميمات هذا البيت الذى كان يسـتمع جدى إلى صوته العـذب وهو يقرأ القرآن الكريم، وما حـكاه عن عمره الطويل الذى امتد إلى الثمانين وجلسته بجانب مقام سيدى هارون المجاور وسلوك واعتقادات الناس لهى جميعها أحلام ورؤى وتفاسـير شعبية لأهل المكان الذين عاشوا فيه.

وبيـت الكريتليـة يماثل كل البيـوت الأخرى فى بـر مصرحيث عاش به العديد من البشـر. فقد جـاء كل واحد منهم بحكايته وبصمته وكأنما قرر وبطريقة لا شعورية أن يعطى المكان حياة أخرى تناسبه هو شـخصيا إلا إنه في الحقيقة لا يصبح أكثر مـن زائر للمكان الذى يأبى على الذوبان فى كيانات أخرى.. وكأن هذا المكان هو مصر.

ولأننا لا نريد أن نعطى أحكاما مسـبقة فالواقع يقر أنه عندما جاء جاير أندرسون ليستريح استراحة المعتزل بعد سنوات العمل فى الطب والجيش لم يسـتطع إلا أن يهب ما تبقى من سـنوات عمره لهذا البيت وبيت الكريتلية كما تقول المعلومة التاريخية قد بنى فى القرن السادس عشر وهو ليس منزلا واحدا بل منزلين.

وقد ظهر أول البيتين فى هذه الدنيا فى نهاية القرن السادس عشر. وأمـا البيت الآخـر الذى انضم إليه فيما بعد فقـد بنى فى بداية القرن

السابع عشر فى عصر الولاة العثمانيين ويقال إن أجيالا من البشر سكنته وإنهم كانوا يعشقون المحروسة وإلا لما عاشوا بها، وتذكر بعض الكتب أسماء مثل آمنة بنت سالم وابن الجزار وسيدة من جزيرة كريت كان لسكنها هذا البيت السبب فى تسميته باسم بيت الكريتلية والذى حرف فيما بعد إلى بيت الكريدلية.

فهذا البيت مثله.. مثل الحلم الجميل الذى يأتى فى الليالى البيضاء مثل فتاة جميلة كأخت القمر تبدو مشغولة البال بطيف الحبيب كل ساعات النهار.. مثل الحكايات الأسطورية التى كان أندرسون يكتبها فى ساعة العصارى من كل يوم مثل كل ما يجعل كل شيء يبدو جميلا ومبهرا فى بيت الكريتلية.

فهنا تهدأ الروح ونتذكر أحلامنا وانكساراتنا وأن الحياة قصيرة. وأن الله وحده يعلم البداية والنهاية. وأنه لا يمكن الحصول من وراء هذه الحياة سوى على حق الحياة نفسها. فهنا فهم كل من عاش فى هذا البيت أن الحياة ليست سوى حلم قصير ينتهى. ولا دليل أكبر من وجود هذه الجدران من قبل جاير أندرسون.

فهؤلاء جميعا جلسوا فى صحن الدار المكشوفة فى ليالى الصيف المقمرة واستمعوا إلى خرير الماء للسبيل الملحق بالبيت. بل وارتاحوا على مقاعده واستمتعوا وسط نسمات الهواء بقصص حب وعطف كما عرفوا الكره والوفاء والغدر. وبعضهم كتبت لهم السعادة فى هذه الحياة وبعضهم خرج منها مدحورا بقلب لا يعرف أن الغد يوم آخر ربما أفضل بكثير.

المهـــم إنها حكايات كثيرة تتعدد بتعدد البشـــر وتدور بجانب كل هذه المشربيات المتعددة الأشـــكال والقمريات التى يطل منها نور القمر وسلطان الشمس.

ففى السلاملك أو قاعة الرجال يوجد الكثير من الدواليب الغائرة أو الخوارســتانات كما يطلق عليها بالفارسية. وهناك الصناديق الخشبية المطعمة بالصدف والأطباق النحاسية ذات المباخر فهنا وعلى هذه المقاعد كانت تناقش أمور السياسة والتجارة فى زمن الطرابيش.

وأمـــا الحرملك فهو على الجانب الأخر يشـــى بعطر امرأة مرت من المكان. فهذه المشربيات والدواليب المذهبة شاهدة وحتى كرسى العروسة لا تجلس عليه إلا جميلة تريد أن تتزين.

فـــأدوات الزينة والصناديق هى ملكة المكان. وأما هذا الممر الســـرى الذى يقع فى جانب الغرفة فهو أســـطورة كبيرة فهذا الممر السرى الذى يوجـــد فى جانب خفى من غرفـــة الحرملك هو فى الواقع ممر يؤدى إلى الخارج والغرض منه هو الهروب خارج الجدران.

فهـــذا البيت ربما شـــيد فى فترة عاصرت عدم الاســـتقرار فلم يكن هنـــاك بد من وجود ممر خفـــى للخروج فى حالة وقـــوع هجوم مباغت علـــى الحرملك، وربما كان هذا الممر جزءا مـــن معمار البيوت الكبيرة وقتهـــا، ولكن من يا ترى هرب من هذا البيت وإلى أين ذهب؟ وهل عاد حيا أم قتله الأشرار فى طريقه للخلاص بحياته... حكايات وحكايات الله وحده يعلمها.

فمــن بين الأســاطير أن هــذا البيت محروس وأنه قد شــهد قصص حــب جميلة فاقت قصة روميو وجولييت.فهذا هو الخيال الذى يختلط بالواقــع. وأمــا الواقع فهو يفرض ســؤالا آخر: وهو كيــف كان يقضى أندرســون يومه وسط هذه الغرف؟ وهل كانت حياته مجرد انتقال بين السلاملك والحرملك أم إنه اختار غرفة بعينها ليسكنها؟ وترى ما هذه الغرفــة ولماذا اختارها بالذات؟ ولماذا هذا الاختلاف والتعدد بين غرفة دمشــقية وأخرى فارسية وواحدة تركية وأخرى صينية ولماذا يبدو هنا الكل فى واحد؟ وماذا يحدث بين الصباح والمســاء؟ فلعلنا نطلق لأنفسنا الخيال ونرى كيف كان يعيش أهل الدار.



القصة الأولى
دمشقيات وأخت القمر

يتنفس الصبح ولا تجد الشمس ما هو أروع من الغرفة الدمشقية لكى تتسلل إليها عبر ستائرها فقد جاءت الشمس لترى هذه الغرفة ولعلها زارتها لتكمل جزءا من كيانها فهذه الغرفة تشعرنا بأننا فى بر الشام فهنا السرير الصغير الشديد الزخرفة. هنا جدران كسيت بالخشب والنقوش البارزة ذات الألوان الدافئة. وهنا أبيات من الشعر العربى كتبت بماء الذهب فى مدح الرسول الكريم ﷺ :

يا مفخر الرسل الكرام لكونه أضحى الجميع ببعثه مختوما

فهذه غرفة وكما يبدو كانت تسكن من قبل إحدى البيوت الدمشقية القديمة. وهذا التكوين الصغير للغرفة ربما يخص فتاة جميلة لها ضفائر طويلة تكتحل بكحل عربى وتعد الأيام فى انتظار الغد.

ففى يوم المقابلة الذى تجتمع فيه نساء العائلة تجدها تجلس فى صحن الدار مع بقية النساء وإن كانت تبدو مشغولة البال ذاهلة عن أى طعام وشراب.

وهى لا تعير اهتماما لكل الأطباق الدمشقية التى لايمكن مقاومتها. فهى على غير حال أهل بيتها الذين يعشقون أطايب الطعام.

فلماذا تبــدو بعيدة بخيالها عن البيت الذى يســكنه الجد والجدة والأب والأم والأخــوة؟! ولماذا لا تتحدث كثيرا وهــى وردة الدار التى تفتحت فى ســنوات قليلة وتركت الطفولــة إلى الأنوثة؟! كثيرة كثيرة هى علامات الاستفهام.

إلا أن ما نعرفه يقينا إنها اليوم تسكن هذه الغرفة وغدا ستكون فى مكان آخر فى بيت زوجها.

وســتكون هذه الغرفة الأنيقة أو غرفتها الدمشقية من ضمن رصيد جهازها عندما تذهب إلى بيت زوجها ولكن كيف ســتكون هذه الأيام؟ وهل ســتجد السعادة أم أن سوء طالعها ســيجمعها بإنسان لا خير فى الارتباط به؟... الله تعالى وحده مقلب القلوب يعلم.

□□□

تركيات
وساعة العصارى

ساعة العصارى وكما يحلو لى أن أتصور كان أندرسون يمر فى بمتحف البيت الذى يضم التماثيل الفرعونية والطاسات النحاسية ودوارق الزجاج المصرى ليجلس فى الغرفة التركية المذهبة التى تنتمى إلى الطراز الأوربى، والتى يمكن أن نرى شبيهة لها فى الكثير من البيوت المصرية فى زمن الجدود والجدات.

فقد تعاطف الفن التركي مع الطراز الأوربى فشخصية التركى المحاربة كانت تتأثر بالفن الفارسى فى البداية وإن كانت لهم موضوعاتهم الشديدة المحلية إلا أن هذه الشخصية ما لبثت أن تأثرت بالطرز الأوربية واعتبرتها إحدى التفاصيل المحلية الخاصة بها.

المهم إنها غرفة تقبل وجود الآخرين ولا تحمل خصوصية غرفة القراءة أو غرفة الكتابة التى تبدو شديدة الخصوصية ففى غرفة القراءة لا مكان للكتابة والعكس صحيح فى غرفة الكتابة حيث لا مجال للقراءة فالمساحات صغيرة ومقدرة لغرض واحد والتنوع مقصود فلا تجتمع القراءة والكتابة فى مكان واحد حتى لا يتسرب الملل إلى رواد الغرفتين.

وأما الغرفة التي تجاورهم فهي غرفة صينية. فلا يسـتطيع أحد أن يقتلـع التأثير الصيني من الفنون الشـرقية فالخزف والحرير والإتقان الصيني يفرض نفسه.

فهي حضـارة لا تتبدل ولا تترك مكانها لأخريـات. فالصين تلزم نفسـها بفنها كما تلتزم مصر بكل التفاصيل الشـعبية العبقرية. والفن الصينـي مقبول في أي مكان في الدنيا. فهو صاحب خصوصية شـديدة ولا يقبل أن يغزوه فن آخر أو يفرض نفسه على أرض لا تقبل وجوده.



فارسيات
والليالى البيضاء

مثل

الحلم الجميـــل فى الليالى البيضــاء... مثـــل كل المنمنمات التى أبدعتها يد بهزاد فنان إيران الأول فى كتب فى روعة الشاهنامة «كتاب الملوك» والتى تتمازج فى فن لتعبر عن مشــوار اسمه الحياة تأتى هذه الغرفة الفارسية لتكون الملاذ الأخير لكل من ثقل قلبه بالهموم.

فهذه المقاعد والسرير المرتفع لا تصلح إلا لأصحاب المقامات الرفيعة والقامــات المرتفعة فى الفن والحب والحيــاة، وهذا اللون الأحمر الذى يفرض نفســـه على المكان فى جرأة هو لون الشمس والنبلاء والحب كما يقول مولانا جلال الدين الرومى أهم شاعر فى تاريخ الصوفية.

فربما ســكن هذه الغرفة التى اســتعيرت من أحد بيوت طهران أو أصفهان فنان فارســى هو فى حقيقته من حفظة الجمال والفن والتاريخ فهــو صاحب ذاكرة يســتعصى عليها فقد أى من تفاصيـــل كل ما كان، وخيال يســابق الفجر وفراســة مؤمن يحب الخير ويســتلهم خطواته ببركة الرسول ﷺ.

وهو يتوكل على الله حق توكله، ومن توكل على الله فهو حسبه. فمن النوافذ الفارســية الأصيلة يكون الدعاء بقبول خير هذه الدنيا ومحاولة إقناع النفس بقبول المصير.

وســوف تمر الليــالى القاتمة. كما يعتقد الإيرانيــون إذا ما واجهوا أزمــات. ليأتى يوم فى روعــة الثلوج يلمس فيه أرواحنــا هواء كالذى يمر بحدائق شــيراز. فبحســابات النفس الطويل لابد للشجرة أن تقاوم قشعريرة الشتاء لأنه حتما سيأتى الربيع.

فــالألم جزء من الحياة كما يقول شــاعر الفارســية الكبير ســعدى الشيرازى:

إن كنت للناس لم تتألم   فكيف سميت نفسك بآدم

وأغلــق أبواب الغرفة الفارســية وأترك الأحلام والأســاطير عندما أسمع وقع أقدام قريبة منى. ربما كان صوت وقع أقدام أندرسون أو آمنة بنت ســالم أو أحد أفراد العائلة الكريتلية أو الفتاة الدمشــقية أو الفتى الفارسى. ولكن لا يهم فهم جميعا يعيشون هنا الكل فى واحد كما يقول النشيد المصرى القديم... نشيد الخروج إلى النهار.

□□□

بيت الست وسيلة يتجمل

بيتها .. بيت الست وسـيلة الذى يعيش بيننا إلى الآن فى حى الأزهر ناحيــة زقاق العنبة عند تفرعه من حارة الداويداوى بالقرب من منزلى الهوارى وزينب خاتون هو نفسه البيت الإسلامى المصرى الجميل الــذى يصر على الحيــاة برغم الكثير من التجاهل الذى لقيه لســنوات طويلة من حياته.

والغريب - والعهدة على الراوى - أن البيت لم يكن فى الأصل بيت الست وسيلة خاتون أووسيلة خاتون بنت عبد الله البيضا معتوقة الست عديلة هانم زوجة الأمير سليمان أغا السلحدار فى عهد الوالى العثمانى عمر باشــا... ولكنها فيما يبــدو كانت آخر من ملكــه وعاش فيه قبل منتصف القرن التاســع عشــر فى زمن عرفته مصر بزمن واليها محمد على باشا الكبير.

فالبيت فى الأصل قد بنى قبلها بســنوات طويلة وظهرت أول حجة للبيــت لتشــير إلى إنه كان ملــكا للحاج عبد الحق وأخيــه لطفى أولاد المرحوم الكنانى. فبحســابات التاريخ أنشئ هذا البيت فى نهاية القرن السابع عشر وتحديدا فى عام ١٦٦٣م إلا إنه ظل يحمل اسم وسيلة مثله مثل البيوت الإسلامية فى القاهرة التى مازالت تحمل أسماء نساء.

وإن كان هذا البيت كما يقول د.عبد الله كامل موســى أســتاذ الآثار الإسلامية له تميزه الذى جعله موضع اهتمام لجنة حفظ الآثار العربية

من قبل كما تناوله الباحثون الفرنسيون فى كتاب يحمل اسم «ثلاثة قصور من العصر العثمانى فى القاهرة» الذى صحح بعض المعلومات الخاصة بعمارة المنزل حيث إنه في الأصل نموذج لتكوين سكنى بسيط.

وكعادة البيوت الإسلامية فى مصر المحروسة تبدو المداخل مصممة بشكل يستطيع من بالداخل أن يرى القادم وفي الوقت نفسه لا يستطيع أحد أن يتلصص عما يحدث فى البيت أويجرح حركة النساء، وعند دخولنا إلى البيت نقابل السلاملك وهو مكان مخصص لاستقبال الرجال وعلى مدخله توجد كلمة «ياالله» وأسفلها نقش مهدم كتب عليه «يا محمد».

على أبواب وسيلة:

يبدو أن المدخل الرئيسى كان هو المشكلة الأولى لهذا البيت الذى انخفض عن مستوى الشارع بأكثر من مترين نتيجة الردم والرصف.

كما أن وجود شبكات صرف متهالكة وارتفاع منسوب المياه الجوفية قد أدى لتسرب مياه على الحوائط.

فمشكلة بيت وسيلة هى تلك المعاناة الخاصة التى تعرفها بقية البيوت الباقية في القاهرة.

وإن كانت المعضلة الحقيقية لا تتوقف عند هذا الحد فالبيت قد ظل مسكونا بالناس إلى بداية الثمانينيات وقد استخدمه البعض كمنطقة إيواء لمن تهدمت منازلهم.

وباستثناء المقعد الصيفى الذى بقى كجزء سليم فى البيت كانت هناك أجزاء داخلية منهارة أصبحت مقلبا لمهملات العمارات المجاورة...!

إلا إنــه أثناء عملية الترميم اكتشــفت بعض الأشــياء التى لم تكن معروفة ومنها الحوائط الموجودة فى المقعد الصيفى السلاملك التى يغلب عليها اللون الأزرق وهو اللون الأصلى على غير عادة البيوت.

أمــا مفاجأة البيــت الكبرى فهى وجود نماذج نــادرة من اللوحات الزيتيــة داخل البيت تعبر عن مناظر للأماكن المقدســة بالحجاز حيث يوجد بالجزء الشــمالى للقاعة منظر لمســجد الرســول ﷺ مجتمعا مع مناظر أخرى لمنازل المدينة المنورة.

أمــا اللوحة الأخــرى فتمثل منظــر الكعبة المشــرفة والحرم المكى ومنازل مكة التى تحيط بالحرم بشرفاتها الصغيرة.

فهناك صدق للفن الذى أكده العثمانيون وإن كان يبدو أن الفنان الذى ابتدعها صاحب رؤى مصرية.

فهذه اللوحات التى تتيمن ببيوت مكة المكرمة والمدينة المنورة إنما تكشف مدى حب أهل مصر لساكنى هاتين المدينتين.

وقد ظلت هذه اللوحات محفوظة إلى أن اســتعين بخبراء اســتطاعوا خلال ســتة أشــهر من العمل إرجاع اللوحات إلى حالتها الأصلية وإلى مكانها بالحرملك.

وبالرجوع إلى حجة البيت والصور والرسومات التى التقطت ورسمت للبيت منذ بداية القرن العشــرين .وبالمقارنة ببيــوت العصر العثمانى

أمكن التعرف إلى الكثير من تفاصيل البيت، وجمال كل ركن فيه وحتى الأبيات التى كتبت بمقاربة الأسقف من بردة البوصيرى التى كانت موجودة فى كثير من البيوت المصرية كنوع من البركة والدعاء ومدح فى الرسول ﷺ وهى تكشف إلى حد كبير مدى تدين المصريين.

فقد كان المصريون يبحثون عن الجمال وقد أضافوا لمساته إلى بيوتهم فى كل عصر، ولاننسى أن البيت يقع فى قلب القاهرة التاريخية. كما أن حالته قد بلغت من الخطورة مبلغا كبيرا وخاصة فى وجود أجزاء مفصولة ومنها جزءالحمام القديم الذى يعتبر من أهم الأجزاء النادرة فى هذا البيت.

والبيت فى الأساس له واجهتان حجريتان إحداهما رئيسية من الناحية الشمالية الشرقية أما الأخرى فهى من الناحية الجنوبية الشرقية تضم المدخل الحالى للبيت الذى يبدو بعيدا عن مواضع الحياة فى الشارع بالتزامه هذا الركن الهادئ.

وفى فناء المنزل يوجد سلم حجرى ينتهى إلى مدخل هو فى حقيقة الأمر باب تعلوه نافذة، وعلى جانبى المدخل أربع فتحات تفضى إلى حجرتين تعلوهما قاعة لها فتحة دخول من المر المنكسر الذى يربط بينها وبين المقعد. أما ضلعها الشمالى فيطل على الصحن وقد غطى المقعد برسومات هندسية خشبية أسفله إزار خشبى عليه كتابات نسخية باللون الأبيض على أرضية زرقاء وقد خط عليها قوله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٥].(٢٧)

وأما الجدار الغربى فيحمل نصا إنشائيا بتاريخ بناء البيت وينسبه إلى عبد الحق وشقيقه لطفى أولاد المرحوم الكنانى الذين لم ينسب إليهم ملكهم للأسف ولكن نسب إلى الست وسيلة التى كانت فيما يبدو أبرز من سكن هذا البيت... والمشكلة التى أعتقد أننا نواجهها عند الحديث عن وسيلة وبيتها أن الكثير من قصص أهل البيت لا يعرفها أحد.

فهو بيت بسيط ولكنه فى بر مصر المحروسة التى عرفت الكثير من البشر الذين يتذكرهم إلى الآن الحجر.

فمشكلة وسيلة وأخواتها أنها بيوت مصرية وأن مصر يفيض فيها كل شبر بالخاص والعام... فلسنا فى الحقيقة فى حاجة إلى مقهى ودف وناى وجمهور من كل حدب وصوب، لكى نحكى عن أى من القصص المصرية ولكننا فقط أردنا أن نتوقف عند بعض الحكايات التى ضاعت داخل جدران هذه البيوت.

□□□

مقياس للوفاء

موعدنا في جزيرة الروضة... جزيرة السفن والقصور التى شهدت ترف السلطان الغورى ومراد بك وحسن باشا المنسترلى منذ مئات السنين... حيث كان النيل وفي نهاية صيف كل عام لا ينسى أن يوفي بوعده مع المصريين.. وكان مقياس الروضة الذى يعد ثانى أقدم الآثار الإسلامية الموجودة فى القاهرة هو المبشر الذى يعلن للناس أن الخير فى طريقه إليهم وأن الوادى العظيم سوف يتمتع بحظه من الزراعة والحياة اللتين قسمهما الله تعالى لهما.

فقد كان هناك ما يشبه العرف بأن وصول منسوب النيل إلى ارتفاع ستة عشرة ذراعا هو إعلان لوفاء النيل. أما إذا كان أقل انخفاضا فهذا يعنى أن أيام التحاريق قد امتدت وأن شيئا من الجفاف سوف يفرض نفسه على بر مصر.

إلا أن الأيام تتغير وتدور دورتها على هذا المقياس صاحب النقوش الزخرفية البديعة بعد وجود السد العالى الذى أصبح الحامى الحقيقى لمصر من أيام التحاريق..ولهذا نسى الناس هذا المقياس الذى لم يعودوا يتذكرون حتى مكانه بعد كل هذه السنوات!

ونتذكر مع مقياس النيل الكثير من الذكريات المصرية الأصيلة التى يبدؤها كمال السيد فى كتابه: «القاهرة أسماء ومسميات» حيث يقول

إن أهل مصر طلبوا من عمرو بن العاص إلقاء بنت بكر فى النيل ليتحقق الوفاء فرفض وكتب إلى عمر بن الخطاب الذى أرسل إليه خطابا يقول فيه: من عبد الله أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد... فإن كنت تجر من قبلك فلا تجر. وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

وألقيت فى اليم، وجاء الصباح بوفاء النيل وهى قصة معروفة بلا شك للجميع. إلا أن الجديد الذى يذكره المؤلف هو أن الحديث عن النيل قد تكرر فى المكاتبات بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص. فقد روى المقريزى أن عمرو كتب إلى عمر بن الخطاب يقول:

(إن الاستبحار يدعو إلى الاحتكار والاحتكار يدعو إلى غلاء الأسعار. وإن النيل يروى أهل مصر ريا مريحا كاملا على الست عشرة ذراعا، وإن النهايتين المخوفتين للظمأ أو الاستبحار هما اثنتا عشرة ذراعا وثمانية عشرة ذراعا).

فأشار عليهما على بن أبى طالب كرم الله وجهه بأن ينشئ مقياسا بحلوان. فأنشئ مقياس صغير ثم بنى المقياس فى جزيرة الروضة فى خلافة سليمان بن عبد الملك. والعهدة على المؤلف وإن كانت بعض الكتب تشير إلى أنه أنشئ فى عهد الخليفة المتوكل.(٢٨)

أما الحكايات التى تروى عن احتفالات وفاء النيل وبحر الخليج ومقياس الروضة فهى كثيرة.

ففى العصر الفاطمى كانت تسـجل العلامـات يوميا وعندما يقترب النيل مـن الفيضان يذهب الخليفـة للمبيت فى المقيـاس .وتبدأ قراءة القرآن وإيقاد الشموع .وكان يخرج من قصره الكبير-كما يقول المؤلف- إلى باب زويلـة ثم حى الصليبة ليمر ببركتـى الفيل وقارون ثم يركب سـفينته ويذهـب إلى مقياس الروضة ليصلى ويضـع على عمود المقياس المسك والعنبر.

وبعدها فى العصر الأيوبى يتكرر الحدث ويركب السلطان سفينته إلى المقياس ويكون فى اسـتقباله مئات المراكب التى تحمل من أكبر كبير إلى أصغر صغير ويضع للمقياس المسك والعنبر ثم يأمر بفتح الخليج.

ومعنـى هذا أن فهم عمر بن الخطاب لطبيعة مصر والأراضى المصرية كان فهما وإدراكا صحيحا للأمور. ولهذا جاء الخلفاء والسلاطين من بعده ليتعاملوا مع نيل مصر وبرها بنفس مفردات التقدير والاحترام.

أمـا هذا المقيـاس فكان فى الأصل هبة جميلة تضـاف إلى مصر وقد صممـه المهندس أحمد بن محمد الحاسـب ليشـهد علـى براعة الفنان المعمارى المسلم الذى أنشأ مثل هذا المبنى فى النيل على ثلاثة مستويات.

أولها المسـتوى الأول وهو دائرى ثم المسـتوى الثانى والثالث وهما على شـكل مربع ويتوسـطه عمـود رخامى مدرج مـدون عليه علامات القياس وعليه كتابات بالخط الكوفى وهو ثمانى الأضلاع مثبت فى وسط بئر بواسطة عقدين يرتكزان على حائط البئر من الداخل.

والعمود مقسم إلى تسع عشرة ذراعا. ويوجد في جدران المقياس ثلاث فتحات بالقرب من القاع تزينها عقود مدببة ترتكز على أعمدة تصل إلى النيل عن طريق قنوات يتم من خلالها دخول المياه لبئر المقياس، والمقياس من الناحية المعمارية يعتبر معجزة وقد تم بدء بنائه في موسم التحاريق حيث كانت نسبة المياه منخفضة باستخدام خشب الجميز في البناء الذي اتضح أنه يمتص المياه ولا يتأثر بها.

وقد شيد المقياس من أسفل على شكل دائري حتى يتحمل شدة تيار الماء فلا تتفتت جدرانه ثم تحول المعماري بالمستويين الثاني والثالث إلى الشكل المربع.

ويضم المقياس فنون العمارة الإسلامية كلها بدءًا. من العصر الإسلامي الأول وحتى العصر الحديث بعد أن جددته لجنة الآثار العربية وقام الأثريون بإجراء صيانات وترميمات دورية له.

إلا أن أول هذه الترميمات والإصلاحات تعود إلى الطولونيين ثم إلى بدر الدين الجمالي وزير الخليفة المستنصر عندما بنى بجواره المسجد المعروف بمسجد المقياس والذي دمر إثر انفجار بمصنع للبارود بالجزيرة عام ١٨٣٠م.

وفي العصر المملوكي شيد الظاهر بيبرس قبة على البئر ثم قام سليم الأول في العصر العثماني بإجراء بعض الإصلاحات التي أتمها فيما بعد الأمير علي بك الكبير خاصة في عمود المقياس.

ويقال إن حمزة باشا تابع التجديدات ولكن في العتب الخشبي الذي يربط بين الجدران لتدعيم عمود المقياس من أعلى هذه المرة.

وحتى الحملة الفرنسية كانت لها بصمتها على المقياس. كما تحكى الأثرية سلوى حيرم. فكما قال الجبرتى إنهم غيروا من معالمه وبنوا القاعة التى بها العمود بشكل لا بأس به.

وفى العصر الحديث قامت لجنة حفظ الآثار بعمل إصلاحات شاملة نتيجة حدوث هبوط فى العمود وأقامت عليه هذا الغطاء الهرمى الذى يشاهد عليه الآن. واستمرالحال إلى أن جاء زمن السد العالى فأحال هذا المقياس للاستيداع بعد قرون طويلة من العمل المضنى وفاء للرسالة المصرية، وإن كان اليوم يستمر كمزار أثرى لا يعلم عنه الناس الكثير.

إلا أن هناك من يعود كالدكتور محمد إبراهيم بكر أستاذ الآثار الإسلامية ليؤكد أن الفكرة أولا مصرية. والمقياس له نظير فى أسوان، وإنه كان هناك دائما منذ عصر الفراعنة الموظفون المكلفون بمتابعة عملية ارتفاع الفيضان لتبليغ مدينة منف بما يحدث.

والمقياس الموجود فى أسوان موجود على صخور جرانيت أسوان فى جزيرة فيلة وعليه نفس العلامات المصرية القديمة. وقد أعيد استعماله فى العصور التالية وهناك مقياس فى اتجاه الجنوب عند معبد إيزيس الشهير الذى نقل بعد أن تعرض للغرق بعد السد العالى، وبعيدا عن هذه المجادلة العلمية، فالمعروف أنه كان لمقياس النيل جهاز إدارى عالى المستوى يقوم بعملية القياسات، حتى إذا وصل ارتفاع النيل عند الحد اللازم للمياه يكون النيل قد أوفى بوعده ويقام احتفال كبير.

فقد كان كل شىء يتوقف على هذا المقياس وتبليغ موظف الرى فى مصر القديمة للقيام بالزراعة فى أراضى مصر.

كمـا كان لهذه المقاييس أهمية كبيرة أيضا فى تحديد الضرائب. فلا يمكـن فرض ضرائـب باهظة على الفلاحين إذا لم يوف النيل واسـتمر الحال حتى بناء سـد أسوان. فكان يجب مراقبة الارتفاعات حتى يأخذ النـاس حذرهم فلا يداهمهم الفيضان وحتى يمكن للدولة المصرية فرض الضرائب وهى مطمئنة على حال الأراضى والزراعة والخير فى بر مصر.

فقـد كان فى الأزمنـة الفرعونية الأولى يعتقدون فى أسـاطيرهم أن الفيضان يأتى من دموع إيزيس حزنا على وفاة زوجها. وكانوا يعتقدون أيضـا أن مياه الفيضان تنفجر من خلف جزيرة فيلة وأن مصدرها عيون ضخمة تحت الأرض.

وبـدون الفيضان كانت البلاد والعباد يعانون من قحط شـديد. وكان هذا يعنى فى أهون تقدير أن شرا ألم بأهل الأرض وأن الوفاء يعنى الماء والطمى اللذين لا تصح الأرض بدونهما.

أمـا إذا جاء الفيضان فقـد كانوا ينتظرون بعـد أن ينتهى الفيضان وتنسـحب المياه من الأراضـى. فالحياة كانت تبدو مشـلولة لمدة ثلاثة أشـهر وهى وقت الفيضان بعدها تنحسر المياه وتذهب إلى البحر. وتظل الأرض رطبـة وتبدأ فى الجفاف قليلا فتنشـأ الحياة الزراعية وتخضر الأرض بعد طول انتظار.

ولا غرابة فى هذا فقد كان كل شىء فى مصر مقسما إلى مواسم باسم الطبيعة. ولهذا كانت هناك ثلاثة مواسـم وليسـت أربعة وهى موسـم الفيضان وموسم الزراعة وموسم الحصاد.

المقطم جبل الأولياء

هو جبـل... ولكنه ليـس كأى جبل آخر فهوصاحـب أكبر قدر من الأحـداث الحقيقية والحكايات فى هذه الدنيا. صحيح إنه ليس الجبل الوحيد الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه، فهو ليس طور سيناء الذى ذكر فى القرآن الكريم، ولا جبل أحد الذى وصفه الرسول ﷺ بأنه جبل يحبنا ونحبه ولا حتى جبلا من جبال مكة الذين سبق لهم شرف الإطلال واحتواء البيت العتيق.

إلا إنـه جبل المقطم الذى ما إن وصل جنـد عمرو بن العاص الفاتحون بر مصر ورأوه لأول مرة حتى أصيبوا بحالة من الارتباك الكبير لأنهم لم يجدوه يختلف عن جبال أخرى شـاهدوها. وكأن الجبل ليس من أصحاب الطبيعة المصرية إلا إنهم تأكدوا بعد سـاعات وربما لحظات... إنه المقطم جبل المصريين وصاحب الألف حكاية وحكاية والتى قد نحكى بعضا منها فالحكايات تتعدد والواقع تلبسه المبالغة فى كثير من الأحيان.

فربما قد يستوقفنى من لا يصدق، ولكنه المقطم ذلك المجهول الذى نتحـدث عنه ونعلم أنه فى النهاية لـن يكون أكبر الحكايات المصرية. فـإذا كنا قد روينا بعضا من قصص القادمين إلى بر مصر واذا كنا تحدثنا عما فعله الناس فى سـبيل الخير، فالأولى بنا أن نقرأ هذه الأوراق وأن نتعرف إلى أشخاص أصبحوا فيما أصبحوا نوادر مصرية صميمة يعرفها سكان المحروسة.

الورقة الأولى
غراس الجنة

يذكر كتاب «فتوح مصر وأخبارها» لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشـى المصرى رحمـة الله عليه، نقلا عن عبد الله صالح حدثنا الليث بن سعد أن سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار فتعجب عمرو من ذلك وقال أكتب فـى ذلك إلى أمير المؤمنين. فكتب بذلك إليه عمر فكتب اليه عمر سـله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة.

فكتب بذلك إلى عمر.. فكتب إليه عمر: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين فأقبر فيها من مات قبلك من المسـلمين ولا تبعه بشـىء فكان أول من دفن فيها رجل من المعافر يقال له عامر فقيل عمرت.(٢٩)

أمـا أول قصـة للمقطم فقد حار الناس فى معرفتهـا إلا إننا يمكننا القـول إنه ومنـذ تفتحت أعين الناس عليه وهـو موطن الخير والبركة بينهم ولهذا تتعدد الروايات.

فالمقريـزى يحكى إنه كان فى الأصـل جبلا للذهب والفيروز، وإنه كان يسـكنه يومـا رجل يدعى مقيطـام الحكيم وقد ذاعت شـهرة هذا الحكيـم حتى وصلت إلى من يملـك مصر فطلب منه أن يخرج له وذهب إلى المقطم الذى لم يستطع أحد من قبل أن يصل إليه.

وقـد كان المقطم أكثر الجبال التزامـا بالطبيعة المصرية وخاصة قيم التسامح والعطاء، ولهذا لما كانت الليلة. والكلام لابن الزيات. التى كلم فيها الله موســى أوحى إلى الجبال إنه مكلم نبيـا من أنبيائه على جبل منها فتواضع جبل طور ســيناء وتصاغر إجلالا لله. فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن يجود كل جبل بشيء مما عليه فجاد كل جبل بشيء إلا المقطم الذى جاد بجميع ما كان عليه من شجر ونبات وماء فعوضه الله تعالى بأن جعل فى سفحه غراس أهل الجنة.(٣٠)

وبرغـم أن القصة لا يوجد من يؤكدها بشـكل قاطع لتكون لنا دليلا فـى جبل المقطم، كما لا يوجد أيضا من يؤكد أن راويها لم يكن أكثر من مغرم بهذا البلد فإننا نقرأ كل ما قيل.

فيقال وكما جاء فى كتاب «الدرر المنظم فى زيارة جبل المقطم» للإمام العارف موفق الدين أن أكبر إخوة يوسـف سـنا وأرشـدهم رأيا قد أقام فـى هذا الجبل أمام تنور فرعون فى المكان المعروف الآن بمشـهد إخوة يوسف.

وقد كان هذا التنور يوقد عليه النار فإذا رآها الناس اجتمعوا. ولهذا يعد التنور أقدم بكثير من مشهد إخوة يوسف إلا إنه هدم فى زمن أحمد ابن طولون.

إلا إن مـا نعرفه يقينا إن جبل المقطـم يضم الكثير من الأودية التى قد لا يعـرف عنها النـاس الكثير. ففيه وادى المسـتضعفين الذى كان يعيش فيه سـلطان المحبين عمر بن الفـارض ووادى الملك ووادى دجلة القرقوبى

الــذى بناه وكيل التجار فى مصر فــى عهد الدولة الفاطمية، ومحراب ابن الفقاعي وهو أحد الصالحين، وكهف الســودان الذى تصفه د/ ســعاد ماهر فى «مســاجد مصر وأولياؤها الصالحون» بأن قوما من الســودان حفروه فى هذا المكان وتعبدوا فيه. فهو فى الأصل كهف للعبادة ثم زاد عليه الأندلسى البراز فى القرن الخامس الهجرى ووضع إليه طريقا.(٣١)

وأما المســاجد.... فهناك مســجد الكنز واللؤلؤة المشــهور بإجابة الدعــاء ومســجد دكة القضاة التى كانوا يجلســون عليهــا لرؤية هلال رمضان ومســجد القضاعى وبناه كافور الإخشــيدى وبــه محراب يقال إنــه قد بناه حاطب بن بلتعة رســول المســلمين إلى المقوقس وهو أوائل المحاريب فى مصر.



الورقة الثانية
فى رحاب الصالحين

مرة أخرى نعود إلى أول المسلمين الذين جاءوا إلى مصر فنصل إلى مسجد عقبة بن عامر الصحابى الجليل الذى كان من أوائل من توفاهم الله تعالى من صحابة الرسول ﷺ بأرضها.

ولعقبة بن عامر تاريخ كبير كصحابى بايع الرسول وشهد فتح الشام ومصر مثل غيره من صالحى هذا العصر فقد كان مسلما حنيفا يخاف الله ويحسن لسان العربية وكان من الثمانين صحابيا الذين وقفوا على قبلة جامع عمرو بن العاص، وقد روى عن الرسول ﷺ الكثير من الأحاديث.

تولى عقبة إمرة مصر فى عهد معاوية بن أبى سفيان الذى أمر له بأرض عرفت باسم منية عقبة والتى حرفت فيما بعد إلى منطقة ميت عقبة الشهيرة، ويقال إن صلاح عقبة بن عامر كان واضحا حتى إنه صحب الرسول ﷺ فى حياته وإنه توفى فى اليوم نفسه الذى توفيت فيه السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

ويقال أيضا إن قبره كان معروفا للمصريين إذ إنه ضمه مع صحابى آخر وهو أبو هبرة الغفارى، ولا غرابة فى أن تكون داره الأخيرة فى مصر وقد كانت له من قبل الدار الجميلة فى الشام والصحبة المباركة فى المدينة المنورة إلا إن المثوى الأخير كان فى أرض مصر.

ولا غرابة أيضا عندما نصفه بالمحدث والشـاعر وأول من ساعد فى جمع القرآن الكريم وأول من نشر الرايات على السفن كما أشار د.عاصم رزق فى موسـوعته «أطلس العمارة الإسلامية والقبطية فى مصر» وبقى ضريحه بالقرب من مسـجد الإمام الليث بن سـعد ﵁ جهة بساتين الوزير. وقد اهتم به صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى هدم القبة وأنشأ بـدلا منها قبة فخيمة جددت فى عهد الملـك الكامل محمد ابن العادل الأيوبى.

وأمـا المسـجد والضريح الموجـودان الآن وما ألحق بهما من سـبيل ومكتب للأيتام ومساكن للموظفين وما أوقف عليه من عمائر فقد اكتملت صورته فى عهد الوزير محمد باشـا سـلحدار العثمانى. والمسـجد كما تصفه د.سعاد ماهر يتكون من مستطيل وقد زخرف سقفه بنقوش زيتية وخطت عليه أبيات من قصيدة البردة. وفى الحائط الشـرقى كتب ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [سورة التوبة آية: ١٨].

وأمـا اللوحة التأسيسـية فقد كتـب عليها كتابات نسـخية نصه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٦].

هـذا مقام العارف بالله تعالى الشـيخ عقبة بـن عامر الجهنى رضى الله تعالى عنة، وكتب أيضا على الحائط الشـرقى هذا قبر عقبة بن عامر الجهنى حامل راية الرسول ﷺ.

ويوجد على اليســار مئذنة أســطوانية تبدأ بقاعدة حجرية مربعة وتنتهى بقمة مخروطية تشــبه القلم الرصاص. وفــى الجنوب الغربى يوجد الضريح الذى يعلوه قبة اعتبرت أجمل وأكبر القباب التى أنشئت فى العصر العثمانى.

أما الســبيل والكتاب فقد أوقفهما محمد باشــا السلحدار كما أوقف أموالا أخرى. فقد كان رحمه الله مسلما صحيح الإيمان.

و«هناك مبان تابعة للمسجد من منشآت محمد باشا السلحدار وبها ســبيل ذو شــباكين، وهناك رحبة شمالى المسجد بها قبور مجموعة من العلماء والمشاهير، وقد ذكر على باشا مبارك قسما كبيرا من وقية تصف المسجد وأوقافه».(٣٢)

فالواقع يقول إن هذا المســجد حتى ولو لم يحظ بالكثير من معرفة الناس به فإنه مســجد ينتمــى إلى الأماكن المباركة فــى مصر.. أوليس داخله صحابى جليل شرفت مصر بوجوده بين أهلها لزمن؟!



الورقة الثالثة

الأيام المصرية

وفى مكان ليس ببعيد عن الصحابة الصالحين يوجد ضريح العز لدين الله بن عبد السلام، وقدعاش بمصر عشرين عاما، وكان ممن يبعثون على رأس كل مائة عام فيجددون شباب أمة محمد ﷺ، ولهذا نعتبره علامة فارقة فى فقه المصريين وحياتهم.

والعز بن عبد السلام هو ابن العصر الأيوبى، حيث قدر له أن يعيش فى هذا الوقت وأن يكون جزءا من كيانه ومن المشكلات التى بدأت تطل برأسها بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى.

فبين الإخوة والأبناء ذهبت الأرض التى استطاع صلاح الدين حمايتها، ولم يكن هناك بد من اقتسامها بعد رحيل القائد الذى كتب اسمه بحروف من نور فى سجل المدافعين عن الإسلام.

فى هذا الزمن اشتد عود العز بن عبد السلام الذى أهله ذكاؤه وقدراته المتميزة على أن يتلقى العلم على يدى شيخه الفخر بن عساكر. فعرف كيف يقرأ على يديه فى أصول الفقه على المذهب الشافعى. فاعتبر الشيخ الفخر هو البداية الموفقة لمشوار طويل لم يترك فيها أى باب للعلم دون أن يطرقه.

وفى المسجد الأموى قرأ فى التفسير والفلسفة وعلم الكلام وآراء المعتزلة الذين توقف عندهم العز بن عبد السلام كثيرا ووجد فيهم نقطة نظام خاصة أثرت حياته العقلية التى قدر لها أن تستفيد من فكرة إعمال العقل ومن آراء الأشعرى بوجه عام حتى إنه وكما يذكر الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى فى مقاله «العز بن عبد السلام.. سلطان العلماء» شاعت عقيدة الأشعرى فاجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة. وكان صلاح الدين قد اعتنق المذهب الشافعى وعقيدة الأشعرى فألزم بهما الناس.

غير أن الذين جاءوا من بعده تفرقوا: «فظل بعضهم شافعيا على رأى صلاح الدين واعتنق بعضهم غير ذلك من المذاهب ولم يظلوا جميعا على رأى الأشعرى إلا قليلا».(٣٣)

وبرغم أن النشأة الأولى للعز كانت بالشام فإن لمصر حكاية معه فعندما تولى الملك الكامل حكم مصر كان رجلا ممن يحترمون العلماء بل إنه كان واحدا منهم.

فقد كان الكامل من أولى العزم الذين خلقوا للمهام الصعبة. وكان العز بالطبع يجد فيه ملاذا للعلماء خاصة إنه صدر فى عصره كتاب «التذكرة» الذى يعتبر من أهم كتب الفقه الحنفى.

وهكذا لم تكن مصر بعيدة عن عقل العز بن عبد السلام ولا عن تدبيره، بعد ما رأى من فعل غيره من المشايخ الذين يحسدونه على مكانته بعد أن أوغر صدورهم بشعبيته وبالتفاف العامة حوله. فقرروا أن يبدأوا حربهم من باب الملك الأشرف فى الشام ليغروه بالإطاحة بالشيخ.

ومــن جانبــه لم يكن الملك الأشــرف يريد أن يغضــب الملك الكامل فتجاوز عن حقد الحاقدين وعين العز بن عبد السلام فى الجامع الأموى. فكان الأمر كما وصفه الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى كجمع لكل وسـائل النفوذ وأدواته.. فهو خطيب الجامع الأموى وأكبر المفتين وهو شـيخ الحلقة يقنع الناس بوضوح الدليل ونصاعة البرهان وقوة الحجة، ثـم هو إلى كل ذلك قاضى القضاة، فعلى رجال الدولة تنفيذ ما يقضى به وإلا أثموا شرعا واختل ميزان الأمور.

والشـيخ يجد ويجتهد فى دروس الفقه والأصول بالزاوية الغزالية فى الجامع الأموى وينشــط قضاؤه وفتاويه لاستنباط الأحكام من القرآن والســنة وإجماع الصحابة والقياس الصحيح وتحرى مصالح الأمة التى هى مقصد الشريعة حتى لقد صح عند الشيخ الحاجب المالكى وهو واحد من أفقه علماء دمشق أن يقول:

لم نعرف منذ الأئمة الأربعة من هو أفقه من الغزالى إلا الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام.(٣٤)

فحقيقة إن الشـريعة فى الأصل هدفها تحــرى مصالح الأمة إلا أن تكالــب الكثيرين على معايــش الحياة ودفاعهم المســتميت عن حزمة المصــالح الواهنة التى حققوهــا لهو كفيل بإقناع أعــداء العدالة فى كل زمان ومكان بعدم اليأس وإلقاء أسلحة الباطل.

فمثل هؤلاء يملكون القوة السحرية لإشاعة الضلال الذى يرعى عزهم واستمرارهم. فمازال أعداء الشيخ العز يجاهدون قدرات الشيخ ولاييأسون من نســج الشائعات المغرضة حوله، حتى بعد أن تحقق له كل هذا النجاح الذى كان لايعنى لهم شيئا أكثر من خطأ لا يمكن أن يتكرر.

فلم يكد الملك الكامل يغيب عن الساحة بعد أن توفاه الله تعالى حتى أظهر الصالح إسماعيل الوجه القبيح للشيخ العابد والذى لم يكن أكثر من إرث وفاء ما لبث أن تخلص منه ومن فكرة الوفاء نفسها بعد أن مات أخوه.

فعلى الرغم من أن هذا الصالح إسماعيل هو نفسه الذى لجأ إلى الشيخ عندما أحس أن أخاه سيعزله بسبب تصرفاته الماجنة وفتحه الأبواب للفرنجة يروحون ويجيئون بل وينهبون من البلاد كما يشاءوا فإن هذا لا يشفع للشيخ عنده.

أما مصر فقد كانت مصيبتها أكبر باستقرار ملك مثل هذا يعيش على الباطل إلا أن الأيام ما لبثت أن أنصفت المصريين عندما انقلب عليه أخوه الصالح نجم الدين أيوب.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وخاصة فى وجود الصالح إسماعيل على رأس الشام والصالح نجم الدين أيوب على رأس المحروسة مصر.

فكل منهما يتبنى سياسة لابد وأن تصطدم بسياسة الآخر، حتى لو استبعدنا حكمنا على سياسة كل منهما بميزان الحق والباطل.

ويجد العز بن عبد السلام نفسه وسط دوامة الأحداث من جديد.

فهناك ما يستدعيه للجهاد. فالعز وإن عزل من كرسيه لم يكن ذلك الرجل الذى يتوقف عند هذه الأشياء الدنيوية التافهة.

فذهب فى كل مكان يفتى بعدم التعامل مع الفرنجة تعاملا من أى نوع. والأكثر من هذا أنه أفتى بأنه من باعهم السلاح فإنه آثم قلبه وانه خرج عن طاعة الله تعالى ورسوله ولم يعد فى ملة المسلمين.

فكيف يبيع السلاح لمن يريد أن يعمله فى قلب وأحشاء الصغار والنساء والرجال والشيوخ من أهل الإسلام. ومن يفعل هذا فهو قاتل الأبرياء يمنع عنه الله تعالى رحمته ويعامل معاملة المنافقين فى صدر الإسلام.

وهكذا تحقق لكل حساد الشيخ كل ما أرادوا من خروج على طاعة السلطان وهو الأمر الذى لم يكتف به الشيخ بل جهر بعصيانه وحرض الآخرين على السلطان الآمر فى البلاد.

وهكذا أيضا تحقق للشيخ ما أراد، فالحق أحق أن يتبع ودولة الظلم ساعة ودولة الحق لا تسقط ولا تموت.

كما أنه بعصيانه للصالح إسماعيل يكون قد انتصر على نفسه، وأحيا سنة الدين الحنيف بعدم الانصياع للظالمين والمنافقين.

أما السلطان فقد تحقق له ما أراد بخروجه على أهله وتقاليد بلاده ليصبح أكثر قربا من الفرنجة الذين اعتبرت مودتهم الزائفة بالنسبة له أغلى انتصار حققه فى حياته.

وبهذا الأسلوب الواضح فى التعامل أصبح كل طرف سعيدا بما حقق، ويحسب بأنه بهذه الطريقة قد ألحق هزيمة فادحة بالطرف الآخر.

فهذا طالب الدنيا قد نالها وهذا طالب العرش وقد حصل عليه وهذا طالب لرضا الله تعالى وقد وصل اليه.

إلا أن هذه الدائرة الجهنمية لم تكد تقف عجلاتها عند هذا الحد .. فالمطلوب هو سجن الشيخ العز بن عبد السلام وصديقه الشيخ ابن الحاجب المالكى لضبط إيقاع الأسواق والمساجد والبيوت التى أصبحت كتله مشتعلة من كراهية للملك الصالح إسماعيل.

فقد أشعلها الشيخ ولم تهدأ ولم يهدأ، لأن غاية حلمه هو نزع السلطان عن الصالح إسماعيل الذى ألقى ببلاده طواعية فى أحضان الفرنج.

ويسجن الشيخان العز والمالكى ويستبين الأمر بتمام خلع الشيخ العز من كل مناصبه بشكل معلن، ولا يطول السجن فسرعان ما يغادر العز بلاده إلى ملاذه الذى كان دائما يرعاه من بعد. فإلى المحروسة مصر كانت وجهته هذه المرة بعد رحلة لم تكن باليسيرة حيث قابل الشيخ أصحاب المصالح والسلطان الذين كان من الممكن أن يردوه إلى بلاده إلا أن الشيخ قرر مواصلة السير إلى مصر برغم كل تهديد وترغيب.

وفى مصر تستقر الأحوال لزمن بالشيخ الثائر فينصرف للدرس والعلم. ويمضى وقته إما دارسا أو معلما، خاصة بعد أن اشترى له أهل مصر منزلا كبيرا له حديقة غناء تشبه إلى حد كبير الحديقة التى طالما حلمت زوجته بالعيش وسط أشجارها. ويتدارك الشيخ كثيرا من الزمن الذى ذهب سدى وهو موكول بأمر من حوله من الناس فينصرف للقراءة والكتابة ويقدم وجهة نظره مكتوبة للمصريين وللأجيال التى تأتى من بعده.

وإن كان فى الحقيقة لم يذهب وقته سدى، حيث إن دوره الاجتماعى والدينى كان يقتضى منه الالتزام بهذه المواقف السالف سردها وإلا فما قيمة درس علم لا يستفيد منه قائله.

فالتدين الحق ليس مجرد كلمات يقصد بها الالتزام بالفضيلة والصراط المستقيم، فالتدين يعنى أن نكون من هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد كان العز بن عبد السلام واحدا من هؤلاء الذى اجتمع فيهم صلاح الدين والدنيا.

وبرغم أن العز فيما يبدو قد خسـر معركة فى دمشق فإنه أيضا وبهـذه الصيغة تم تعيينــه إماما وخطيبا لجامع عمـرو الذى كان المسجد صاحب الصوت الأعلى فى عصره ليفسح له الطريق للجلوس على مقعد الإفتاء فى مصر.

وإن كان هـذا يعنى أن الأمور فى مصر مؤهلـة لتدور الأحداث من جديد فى اتجاه حرب وشـيكة بين أهلها والفرنجـة الصليبيين الذين كانوا السبب الرئيســى وراء الفتنة الكبرى التى حدثت فى بلاد الشام بل والسـبب الرئيسى أيضا فى انتفاض الشيخ عن مقعده الفقهى الوثير من أجل الحق الذى لا يراد به باطل.

ويقــرر الشـيخ دون تـردد الانضمام لصفـوف المقاتلـين عند علمه باقتراب جنود لويس التاسـع من دميـاط. ويذهب الجميع إلى المنصورة ليشـهدوا انتصار الجيوش المصرية ولتتـوالى بعدها الأحداث، فيموت الملـك الصالح نجـم الدين أيوب علـى إثر علة صحيـة وتصبح الفرصة سانحة أمام مماليكه لاعتلاء عرش مصر.

وتتــوالى الأحـداث ليدق التتار أبـواب العالم الإسـلامى هذه المرة ويثبتوا قدرتهم على اجتياح البلاد ويدقوا أبواب الشام بعد أن تسكرهم انتصاراتهم فى آسـيا واجتياحهم أرض فارس وسـقوط بغداد، ولاتجد مصـر غير سـلطانها المظفر قطز الذى يمتثل لرأى الشـيخ العز فى بيع أسـلاب المماليـك التى حصلـوا عليها فى السـنوات الأخـيرة نتيجة اعتلائهم صهوة السلطة فى مصر.

وتستطيع مصر برغم ظروفها الصعبة تدارك الأمر ورد الزحف المغولى عند عين جالوت إلا أن الجميع يفاجأ بوثوب الظاهر بيبرس إلى العرش بعد تخلصه من قطز عقب النصر وفى طريق عودته إلى بر مصر. ولكن هل يعنى هذا أن العبيد الذين أتى بهم السلطان لخدمته يمكن أن يصبحوا أمراء وسلاطين.

فهذه معركة أخرى للعز بن عبد السلام يصفها السيوطى «فى حسن المحاضرة» فيقول: «تصدى الشيخ عز الدين لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر إنه لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فعظم الخطب عندهم. والشيخ مصمم لا يصح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا».

وتعطلت مصالحهم لذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستثار غضبا، فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال الشيخ: نعقد لكم مجلسا وننادى عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه.

فانزعج النائب وقال: كيف ينادى علينا هذا الشيخ ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنه بسيفى هذا فركب بنفسه فى جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده.

فطرق الباب، فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب السلطان ما رأى، وشرح لوالده الحال فما اكترث لذلك، وقال: يا ولدى. أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ثم خرج فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له.

وقال: يا سيدى إيش تعمل؟

- أنادى عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعى.

- فيم تصرف ثمننا؟

- فى مصالح المسلمين.

- من يقبضه؟

- أنا.

انصرف نائب السلطنة إلى السلطان حيث كان جميع الأمراء قد اجتمعوا عنده، فروى لهم نائب السلطان ما كان بينه وبين الشيخ.

ولم يذعن السلطان فأرسل إلى الشيخ من يتلطف له ويحاول صرفه عن بيع الأمراء، وأخبره الرسول بعد حوار طويل أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء، وأمر السلطان واجب وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين. وعلى أية حال فليس للشيخ أن يدخل فى أمور الدولة فشئون الأمراء لا تتعلق به.. فهى شأن السلطان وحده.

أنكر الشيخ تدخل السلطان فى القضاء وقام فجمع أمتعته ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى وساق الحمار ماشيا!

إلى أين يا شيخ؟

قال: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟

فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة ويعتدى فيها على القضاء!.(٣٥)

وهكذا تسـير الأحداث بالعز بن عبد السـلام الـذى لم يكن يهادن الأعداء ولا يحط من قدر عقيدته بائتلاف واهن مع أولى الأمر.

وهكذا أيضا نتوقف عن الحديث عند هذا الحد...فحياة الشيخ العز مثلها مثل أى شيء فى هذه الدنيا لها بداية ونهاية.

وما أسـرع الأيام.. فبعدها بزمن يسـير تنطفئ شمعة العمر عندما يبلغ الشـيخ عامه الثالث والثمانين وهو يفسـر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سـورة النور آية: ٣٥] ويترك كل شـىء فى هذه الحياة ويخرج من مصر مسـافرا إلى الله عز وجـل بعد أن جلس الظاهر بيبرس على عرشها واستراح ودام الأمر له لسنوات.

وتتذكر البيوت المصرية العز بن عبد السلام الذى كان أفضل من عرف الإسلام فى زمنه ويحتضنه المقطم بجوار الإمام الليث فى قبة أقيمت فى أوائل العصر المملوكى لها قيمة معمارية خاصة إلا أن هذه القبة يصيبها الكثير من الهدم ليبقى العز بسيرته وبما قدم للإسلام.

ولكـن هل ينتهـى الأمر عند العز بـن عبد السـلام أو عند عقبة ابن عامـر أو حتى عند بدر الدين الجمالى الوزيـر الفاطمى الذى أقام مسـجد الجيوشى الشهير الذى يقف عند قمة المقطم بكتاباته الكوفية وإضافات العصر التركى.

لا أعتقـد فالقصة لم تتـم فصولا فهنا فى المقطـم روايات وحكايات للإمـام الليث وابن الفارض وجاهين الخلوتـى وصلاح الدين... فما هى حكاية هذا المكان؟!

الورقة الرابعة

فى حضرة مولانا ابن الفارض

يستيقظ الصبح... وتبدأ الحياة تدب من جديد فى مصر المحروسة مع صوت آذان الفجر وظهور أول الخيوط البيضاء فى الظلام بعد فترة سكون.

فمن يعش فى سكون الليل لا يظن بأى حال أن الناس كانوا يروحون ويجيئون هنا وهناك فى هذه الأزقة وراء لقمة العيش بين النساجين والعطارين والنحاسين والوكالات وبيوت التجار منذ طلعة الصبح.

فالظلام ينبئ بأن النوم والهموم أثقلت جفون الناس فلم يبق طفل ولا شيخ ولا رجل ولا امرأة مستيقظا. فلم يبق مستيقظا إلا من تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيعتزلوا الدنيا فى حجرات لا يظهر فيها إلا خيالهم وهم يسجدون ويقرأون القرآن أمام شموع ضعيفة تبدو هى الأخرى وكأنها خيوط تكافح الظلام الشديد.

أيام الأيوبيين

مازلنا فى زمن السلطان صلاح الدين الأيوبى فارس العرب والإسلام الذى قد تغيرت الكثير من الأشياء بقدومه إلى بر مصر.

فقــد اختفت الأحاديث فى البيوت المصرية عــن أيام الفاطميين ولم يعد هناك حديث مفصل ســوى عن القلعة التى تبنى على مشارف جبل المقطم بعــد أن أصبح البناء فى هذا المكان ليــس بجديد على المصريين، فعلى حافته يوجد مســجد الجيوشى الذى بناه بدر الدين الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المســتنصر بالله والذى استطاع فى غضون سنوات قليلة أن يعيد الرخاء إلى مصر. وكان رحمه الله من أفضل البنائين حيث إن هذا المسجد يبدو فى توافقه مع تضاريس المقطم وكأنه قطعة منه.

وفى مكان أخر ليس ببعيد يوجد مشــهد إخوة يوسف عليه السلام اليســع وبنيامين وروبيل والذى أمر بإنشــائه الخليفــة الفاطمى الآمر بأحكام الله، ومسجد اللؤلؤة الذى كان مسجدا قديما أعاده إلى الحياة من جديد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

وفى مكان آخر يوجد الكثير من مشاهد الصالحين والمسلمين الأوائل مثــل محمد بن أبى بكــر الصديق الذى جاء إلى مصــر حاكما ذات يوم. ولهذا فوجود قلعة على مشارف الجبل المبارك لم يعد بدعة.

فالمقطم يحمى القاهرة المحروســة وقــد تأكد الناس من الأمر عندما رأى بعضهم بعينى رأسه ما قد كتب من أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة للمحروسة القاهرة.

ولهــذا فقد تعدد العارفون بجبل مصر المقطم ولم يعد غريبا أن نرى ابن الفارض ســلطان العاشقين وهو يجوب وادى المستضعفين.. لنتوقف عند حكايته!

وادى المستضعفين

تبدأ القصة فى الشـام حيث الحياة الهادئة ومع هذا تقرر الأسـرة الرحيل إلى مصر بعد أن تبين لعائل الأسـرة أن هناك فرصة للاسـتقرار بمصر والتدرج بوظائف القضاء.

وقـد بـدأ الأب فى مصر فارضـا أى من يثبت فروضا للنسـاء على الرجـال وبعد نجاحه فى عمله أصبـح الطريق مفتوحا لأن يكون قاضى قضاة المحروسة وداعى الدعاة إلا إنه وكما يقول ابن إياس قد آثر العزلة والانقطاع واعتكف لله بقاعة الخطابة بصحن الجامع الأزهر.

فالأب كان صالحا وموفقا فى دينه ودنياه، ولأن النبتة الصالحة لا تبتعد عن أرضها فقد رأى الابن ما كان من الأب فأصبح هو الآخر تقيا ورعا.

فمنذ ولد ابن الفارض. أبو حفص عمر بن أبى الحسن على المرشد بن على فى عام ستة وسبعين وخمسمائة من الهجرة وكما يقول ابن خلكان وهو يعيش فى زمن يحتفى كثيرا بالعلم والدين.

فلم يكن انتقال أسرته من حماة بالشام إلى مصر المحروسة ولاتتابع سـلاطين الدولة الأيوبية إلا مسـاحة كبيرة من الزمن امتدت لما يقارب أربعة وخمسين وربما ستة وخمسين عاما من السياحة والتعبد.

فالناس فى هذا الزمن الذى كثر فيه العلماء والزهاد والصوفية كانوا يشعرون بأن الاعتصام بحبل الله والتمسك بالعروة الوثقى هو الملاذ.

فقد هزم صلاح الدين الفرنجة في أكثر من موطن إلا أن وجودهم على أبواب الدولة الإسلامية وتهديدهم للأماكن المقدسة كان يعني بلا شك ألا يتركوا شيئا نهبا للظروف فالعدو على الأبواب ولا يضيع من الأرض إلا ما يفرط فيه أهلها.

فهذا ما قاله علماء عصره وما يقوله علماء كل عصر. فما بالنا بما سمعه ابن الفارض من الشيخ عبد الرحيم القنائي وأبي الحسن بن الصباغ وعزالدين بن عبد السلام الذين كانوا في الواقع ليسوا فقط مجرد علماء يقومون بعملهم في هداية الناس وشرح ما استغلق فهمه من نصوص القرآن الكريم بل كانوا هبة من الله تعالى للمؤمنين في ذلك العصر.

وأما وادي المستضعفين وجبل المقطم الذي كان المكان المفضل لابن الفارض فقد بدأت علاقته به مبكرا في بداية شبابه عندما كان يتيه عشقا بهذا الجبل الذي رأى فيه الملجأ للتعبد ووجد في واديه الغاية للمستضعفين، فكان يستأذن والده - كما يقول حفيده في كتابه: «ديباجة الديوان» - ليعيش بين هذه السياحة ليلا ونهارا ثم يعود لوالده لأجل بره ومراعاة قلبه.

وكان والدي. والكلام لابن الفارض. يومئذ خليفة الحاكم العزيز بالقاهرة ومصر المحروسة وكان من أكابر أهل العلم والعمل فأجده مسرورا برجوعي إليه ويلزمني بالجلوس معه في مجالس الحكم وفي مدارس العلم، ثم أشتاق إلى التجريد فأستأذنه وأعود إلى السياحة وما برحت أفعل ذلك مرة بعد مرة إلى أن سئل والدي أن يكون قاضي القضاة فامتنع ونزل عن الحكم.(٣٦)

وتبدو إلى الآن قصة نزول الوالد عن الحكم غريبة، وكأنه هو الآخر اختـار طريق التصوف والتعبد مثـل ابنه أما لماذا فعل هذا فى أخريات عمره، فهذا شـىء يعلمه الله تعالى وحده علام الغيوب والأسرار والمطلع على كل قلب وروح خلقها.

إلا إن ما اختاره ابن الفارض لنفسـه منذ البداية جعله أكثر اقترابا من موطن الشـعر الذى كتبه ليعبر عن عشـقه الشديد للطاعة والعبادة. فيقدم ديوانا لم تعرف العربية مثله.. ويقول فى مصر:

وطنى مصـر وفيهـا وطـرى ... ولعينى مشتهاهـا مشتهاهـا

ويقـال إن المشـتهى الثانى اسـم مكان ذكره المقريـزى بمصر ضمن متنزهـات الفاطميين وكانوا يركبون إليه يوم السـبت والثلاثاء ويقول أيضا فى شهر رمضان المعظم الذى اختصه الله تعالى بالصوم ونزول القرآن الكريم:

فـى هواكـم رمضـان عمـره ... ينقضى ما بيـن أحيـاء وطـى

صائبا شوقـا لصـدا طيفكـم ... جـد ملتـاع أى رؤيـا ورى

أما الحيـاة فهى من حملت ابن الفارض بـين طرقاتها لتجعل منه الزاهـد المتصوف، وأمـا المصادفة فهى من جعلته يقابل شـيخه البقال فيحكـى فى ديباجة الديـوان إنه حضر يوما من سـياحته فى القاهرة ودخل المدرسـة السـيوفية فوجد شـيخا بقالا على بابها يتوضأ وضوءا غير مرتب، فاعترض عليه ابـن الفارض بأن هذا الوضوء مناف لقواعد

الشــرع، وهنا نظر الشيخ إلى ابن الفارض وقال له: يا عمر أنت ما يفتح عليك فى مصر وإنما يفتح عليك بالحجاز فى مكة شـرفها الله فاقصدها فدهش ابن الفارض من هذا القول ورد على الشـيخ بأن الأمر بينه وبين مكة بعيد وإنه لايجد ركبا ولارفقة غير أشهر الحج.

الأيام الحجازية

ويذهب ابن الفارض بالفعل إلى الحجاز حيث يقضى خمســة عشـر عاما ســائحا منقطعا كما كان يفعل فى شــبابه فى المقطم حتى يعود مرة أخــرى إلى مصر المحروســة ليحضر وفاة أســتاذه البقــال ويكتب فى الحجاز وأهلها:

يا أهل ودى هل لراجى وصلكـم	طمع فينعــم بالـــه استرواحــا
منذ غبتم عن ناظرى لـــى أنـــة	ملأت نواحـــى مصـــر نواحــا
وإذا ذكرتكم أميـــل كأننـــى	من طيب ذكركم سقيت الراحــا
وإذا دعيت إلى تناسى عهدكـــم	ألفيت أحشائى بــذاك حشاشــا

وبعــودة ابن الفارض إلى مصر تنقضى السـنوات الأربع الأخيرة من عمــره ويقال إنه رأى الجنــة وعرف مكانه بهــا الا إن غرامه كان هو الورع وسياحته فى الحياة.

ويتوفى ابن الفارض فى العام الثانى والثلاثين والسـتمائة الهجرى ويدفن عند ســفح المقطم ويقام له ضريح منذ العصــر الأيوبى إلا إن هذا الضريــح وكما تؤكد د.ســعاد ماهر تتوالى عليــه الإصلاحات والتجديد

فيضيف السلطان اينال العلائى إليه مسجدا ويوقف الأوقاف لصيانته وإطعام الفقراء ويقع المسجد بالقرب من جاهين الخلوتى.

والضريح الحالى يعود إلى عهد السلطان برقوق بينما يؤسس المسجد الحالى في القرن الثامن عشر على أيدى أمير اللواء الشريف السلطان على بك أمير الحج، ليحمل بين جنباته حجة أهل التوحيد وحامل لواء الشعراء وأحد نبغاء الأدباء والعظماء فى زمانه والذى وصفه د.عاصم رزق في موسوعته بأن شعره اعترف به الموافق والمخالف، ووصفه ابن حجلة بأنه أرق الدواوين شعرا وأنفسها درا وأسرعها للقلوب جرحا إذ هو صادر عن نفثة مصدور وعاشق مهجور.

فلم يضع ابن الفارض حياته كما كان يقول فى آخر أيامه، بل كان أفضل من كتب بالعربية شعرا صوفيا. فهناك أبيات شعرية متميزة قدمها شعراء الفارسية أمثال مولانا جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى.

فيقول مولانا جلال الدين الرومى فى «المثنوى»:

استمع إلى هذا الناى يأخذ فى الشكاية، ومن الفرقات يمضى فى الحكاية.

منذ أن كان من الغاب اقتلاعى، ضج الرجال والنساء من صوت التياعى.

ابتغى صدرا يمزقه الفراق، كى أبث آلام اشتياق.

كل من يبقى بعيدا عن أصوله لايزال يروم أيام وصاله.

نائحا صرت على كل شهود. وقرينا للشقى وللسعيد.

ظن كل امرئ أن صار رفيقى، لكنه لم يبحث من داخلى عن أسرارى.

وليس سرى ببعيد عن نواحى، لكن العين والأذن قد حرمتا هذا النور.

وليس الجسد مستورا عن الروح ولا الروح مستورة عن الجسد، لكن أحدا لم يؤذن له بمعاينة الروح.

وإن هـذا الأنين نار وليـس هواء، وكل من ليسـت لديه هذه النار ليكن هباء.

ونار العشـق هى التى نشـبت فى الناى، وغليان العشـق هو الذى سرى فى الخمر.(٣٧)

وأما عند ابن الفارض فالغرام يبقى:

إن الغرام هو الحيـاة فمت بـه	صبـا فحقـك أن تمـوت وتعـذرا
قل للذيـن تقدمـوا قبلـى ومـن	بعدى ومن أضحى لأشجانـى يـرى
عنى خذوا وبى اقتدوا ولى اسمعوا	وتحدثوا بصبابتى بيـن الـورى
ولقد خلوت مـع الحبيـب وبيننا	سـر أرق مـن النسيـم إذا سـرى

وتعتقد الكاتبة ليلى الدورى فى موقع. التصوف الإسـلامى» إنه إلى الآن لاتزال أشـعار عمر بن الفارض موطن اختلاف فى تفسـيرها. فمن قرأوا ديوان شـعره من فهموا معانيه على ظاهر لفظه، وادعوا بأن حب ابن الفارض أرضى مادى وأن غزله كغزل أبى نواس وغيره.

ومنهـم من تفهمـوا معانـى غزله الحقيقيـة ووقفوا على أسـرار نفس صاحبه المتجردة ففسـروه تفسـيرا صوفيا حتى دعى ابن الفارض «سلطان العاشـقين»، إلا إن حبه هو الحب الرفيع الذى يسمو على المادة وينفلت من قيودها للحاق بمبدع الجمال، وينبوع كل بهاء.

ولابـــن الفارض مذهب خاص في الحب وهو أن يستســـلم الإنســـان للحب الإلهي استســـلاما كاملا وأن يتلاشـــى فيه، فإن الموت فيه حياة والتلاشي نعيم وسعادة.

فلـــم تخطئ الكاتبـــة حين جاءت بهذا الوصـــف لتصف تلك الحالة التي تصف بها شـــاعرا وصوفيا في حجم ابن الفارض. فهو رجل ينتمي لظروف خاصة أنعم الله تعالى بها عليه ليكون ذلك الصوفي الذي يقرض الشعر في أثناء سياحته في ملكوت الله تعالى.

وهـــو عندما كان يذهب إلى هنـــا وهناك في جبل المقطم إنما كان يعد حاسته الشعرية لهذه المهمة الصعبة التي قد لا يثبت أمامها الكثير من الشعراء. فأغلب الشـــعر الصوفي قد كتبه شعراء الفارسية أمثال جامي ونظامـــي والرومي وهم في عرف مواطنيهم أنبياء الشـــعر.. وإن كان لا نبي بعد محمد ﷺ.

وهناك قصائد كثيرة تذكر لابن الفارض إلا أن الكثيرين يذكرون الخمرية.

يقولون لي صفها فأنت بوصفهـــا	خبير أجل عندي بأوصافها علـم
صفاء ولا ماء ولطـف ولا هـــوا	ونور ولا نـار وروح ولا جســـم
تقدم كل الكائنـــات حديثهـــا	قديما ولاشكل هناك ولا رســـم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمـــة	بها احتجبت عن كل من لا له فهم

والتائية الكبرى تضم ٧٦٠ بيتا، وفن ابن الفارض كما تقول الكاتبة هو فن الشاعر الذي اضطرم فيه الحب اضطراما حتى أذهله أحيانا، وقد

أراد التعبير عن ذلك الحب والإفصاح عما يجول في نفسه منه، فكان كلامه شعرا تضيق بحوره وقوافيه عن اندفاع الحب وثورته وتقصر الألفاظ عن تصوير حقيقته.

وابن الفارض لا يغفل عن الموسيقى الشعرية إلا نادرا، فهو يتغنى بشعره تغنيا وينظمه موقعا على أوتار نفسه فتتصاعد أنغام عذبة من الصور اللينة، وتألف الألفاظ والحروف وتتكرر بعضها تكرارا موسيقيا.

تشبيه بليغ.. لشخص يكتب موقعا بقلم مداده قلب صادق... فلا يدرى أن أجمل الشعر هو أكذبه.

فربما يرى ابن الفارض سلطان العاشقين والذى كان يأتيه الملوك لزيارته في الجامع الأزهر أن أجمل الشعر هو ما يعبر عن وجدان وروح شفافة تسجد لله تعالى في كل كلمة تكتبها.

فالشعر بالنسبة لابن الفارض الذى حظيت مصر بوجوده على أرضها صلاة خالصة لوجه الله تعالى.(٣٨)

ولاجدال فيما يمكن أن ينسب إلى قلم وعشق ابن الفارض الذى فاض مدادهما فملأ القلوب بالعشق للواحد القادر الذى لا يمكن مقارنة أى جمال أرضى بجماله، والذى رأه شاعر ومتصوف له قدره كابن الفارض بعينى الحقيقة التى لا يملكها غير العارفين وبقلب لا يفهم وقع نبضاته غير الواصلين، ولهذا فقد كان وكما وصفه الشيخ مصطفى عبد الرازق ظاهرة لامعة بين المتصوفة، بل ويعتبر الصوفى المصرى الأول بلا منازع.

الورقة الخامسة

الليث إمام أهل مصر

رضي الله عنه عــن مصر بوجود آل البيت بين أهلها... وشــرفها بوجود العلم والعلمــاء في برها، ولكنى أتوقف هنــا لأقول لكم أبرها الله تعالى بوجود الإمام الليث عاقد الحاجبين ابن مدينة أصفهان الإيرانية الفارســى الأصل ومــولى بني فهم عبد الرحمن بن خالد وابن قرية قلقشــندة المصرية الذى تعرفه كل شوارع الحجاز وكان أعلم الناس بخُلق الرسول محمد ﷺ.

فهذا الإمام هو نفســه صاحب المســجد الشــهير الذى يقع فى نفس الشارع المسمى باسمه فى سفح المقطم والذى كان فى الأصل مصطبة كتب عليها:

هذا مقام الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن ســعد بن عبد الرحمن أبــى الحارث المصرى مفتــى أهل مصر وأزيد عليها كلمــة فأقول وإمام أهلها... ولكن لماذا نختص الإمام الليث بكل هذا الحديث؟

حدث فى بر مصر

ولكــى نعرف قصة الإمــام الليث لابد من بداية مــن بر مصر وفى ســنوات لم يفصلها حاجــز زمنى كبير بينها وبــين فتح مصر. ونترك الإمام يحكى عن البداية فيقول:

قال لى بعض أهلى إنى ولدت سـنة اثنتين وتسعين والذى أوقن إنى ولدت سنة أربع وتسعين هجرية وقد مات عمر بن عبد العزيز ولى سبع سنين ونحن من أهل أصبهان فاستوصوا بأهل أصبهان خيرا.

وفى كتاب «الليث بن سـعد.. فقيه مصر» للعالم السيد أحمد خليل هناك تفسـير لأصل الإمام الليث الذى حار فيه العلماء فأسلافه الأوائل كانـوا من مدينة أصفهان الإيرانية وإنهم اشـتركوا فـى فتح مصر وإن عمرو بن العاص عندما اعتزم إنشـاء مدينة الفسـطاط قسـمها إلى خطط خص أسـلافه منها بخطة وأطلقوا عليها خطة الحمراوات الثلاث فهم ممن أسلموا وقاتلوا من أجل مصر.

ويذكر القضاعى إنهم حضروا فتح مصر واختلطوا بها وإليهم ينسب الإمام ابن سـعد الفهمى وأما مولد الإمام الليث فكان فى قلقشـندة إحدى قرى القليوبيـة التى تبعد أميالا عن الفسـطاط وكانت ومازالت جزءا من ريـف مصر، فكان أصلـه طيبا ومنبته صالحا كصـلاح الأرض والفلاحين وأحاديث المسـاء التى تدور فى بيوت المصريين وشجرالصفصاف والكافور الذى يرمى بظله هنا وهناك.

والليث علـى ما يبدو لم يكن بعيدا عن الأحاديث والحكاوى المصرية وقد اختلط كل هذا التسامح والسماحة المصرية بالقامة المرتفعة فى الأصول الفارسـية ليصبح الصبى الذى عرف عنه الاسـتقامة والتعفف والذى بدأ فـى طلب المعرفة بقـراءة القرآن ورواية الحديـث. وهو ما لم يخف عن الناس فى بر مصر الذين أبدوا إعجابهم به وهومازال شابا.

فكما يصفه جميل بن يزيد مولى شـرحبيل بن حسنة أدركت الناس وكان الليث بن سعد حديث السن وكان بمصر عبيد الله بن جعفر وجعفر بن ربيعة والحارث بن يزيد ويزيد بن أبى حبيب وابن هبيرة وغيرهم من أهل مصر ومن قدم علينا من فقهاء المدينة وأنهم ليعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه على حداثة سنه.(٣٩)

ولايســتمر المقام كثـيرا بمصر طلبا للعلم فيذهـب إلى الحجاز وهو لايتجاوز العشرين ليأخذ الحديث عن العديد من المشايخ والزهاد ومنهم محمد بن شهاب وأبوالزبير وعطاء بن أبى رباح وقد أخذ عنهم الكثير. فالعلم هو ما يثق به القلب... ولهذا كان من الضرورى الذهاب إلى هؤلاء العلمـاء وفى أماكنهم فيترك الليث مكة راحلا إلى العراق حيث تتملكه الرغبة الشديدة فى محاكاة العلماء ومناظرتهم.

يقول أحد العلماء وهو عبد العزيز بن محمد: رأيت الليث بن سعد عند ربيعة يناظرهم فى المسائل وقد فاق أهل الحلقة.

ويصل الليث إلى ما يرغب وتصل شهرته إلى الخليفة هارون الرشيد وقـد وقع خلاف بينه وبين زوجته زبيدة قال هارون: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ثم ندم.

فجمع الفقهاء فاختلفوا ثم كتب إلى البلدان فاسـتحضر علماءها إليه فلما اجتمعوا جلس لهم فسـألهم فاختلفوا وبقى شيخ لم يتكلم وكان فى آخر المجلس وهو الليث بن سـعد قال: فسـأله، قـال: إذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته. فصرفهم: فقال يدنينى أمير المؤمنين.

فأدناه فقال: أتكلم على الأمان؟ قال: نعم. فأمر بإحضار مصحف فأحضر فقال: تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [سورة الرحمن آية: ٤٦].

قال أمسك يا أمير المؤمنين قل والله قال: فاشتد ذلك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين الشرط أملك.

فقال: والله حتى فرغ اليمين قال: قل إني أخاف مقام ربي، فقال ذلك، فقال يا أمير المؤمنين فهي جنتان وليست بجنة واحدة قال: فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر فقال له الرشيد: أحسنت وأمر له بالجوائز والخلع وأمر له بإقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره وصرفه مكرما.(٤٠)

وهذه الفتوى ليست الوحيدة التي يمكن أن تمنحنا صورة من قريب لواقع الإمام الليث الاجتماعي وفهمه للحياة من حوله. فمما يقال عنه إنه كان أكثر من أفتى في شئون أهل الكتاب. وقد عرفت مصر منذ بداية دخول الإسلام وجود أهل الذمة الذين يعيشون في كنف الدولة الإسلامية فكان لليث فتواه في المعاملات والعقود والزواج والذبائح وإقامة ما هدم من الكنائس.

وهو ما يعني أن شخصية الليث كانت تحمل مبدأ الفهم واستيعاب ما يحدث في مصر. فلم يكن ممن يصدرون فتواهم في مجالس العلماء من وراء الحجرات بل كان يعيش الحياة مع أهله في مصر ويفهم كل ما يحدث حوله كواحد من أبناء هذا البلد.

. فقد كان مسلما وسطيا حنيفا يخاف على مصر والمصريين وكان أكثر ما يريبه أن يقعوا فى فخ الأسـطورة والخرافات التى يعشـقونها والتى يمكن أن تختلط بالعلم فتفسده.

وقد كان في تحايله على أحد رواة الأسطورة مثالا على هذا فعندما استمع إلى أحـد الذين يقصون على الناس القصص فى المسـجد وقـد اختلط بالحديث الأسـاطير، أشـار على الحاكى أن يلتزم الصدق ورجاحـة العقل، فلا يبتذل نفسه فى ذكر الأوهام وخلطها بالحقيقة ومنحها مظهرا يتفق مع الإسلام.

وأرسـل إليه فى مقابل وفائـه بالوعد ألف دينـار واحتجزه عنده لضيافتـه حتى لا يـترك له الفرصة فى التمادى الـذى يجعل الآخرين بكشـفه هذه الأسرار والحكايات يعتبرونه وليا من أولياء الله الصالحين وكأنه سيدنا الخضر عليه السلام.

باختصـار كان الليـث يفهم الإحسـاس بالعقيدة الإسـلامية عند المصريين ولهذا وضع أسـاس فتاوى مصرية خالصـة وناقش الكثير من المسائل التى لم تناقش بمثل هذه الجرأة من قبل كمسائل المهر والرضاعة والقصر فى الصلاة ورؤية هلال رمضان وزكاة الزيتون.

وهكذا يبدو لليث فضائله إلا إن أكثر ما استوقف المؤرخين والفقهاء إلى جانب فتواه الراجحة هو كرمه الشديد وتفضله بعطاء الله.

فـكان ممـا ذكر الترمـذى إن الليث كان يتصدق فـى كل صلاة على ثلاثمائة مسـكين وإنه لم يكن يرد سـائلا وكان يطعم الناس الهرائس بعسل النحل فى الشتاء وفى الصيف بشىء من اللوز والسكر.

ويقول قتيبة بن سعيد قفلنا مع الليث من الإسكندرية ومعه ثلاث سفائن، سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه وقال أبو حاتم بن حبان: كان الليث لا يتردد إليه أحد إلا أدخله في جملة عياله.

وقال أشهب بن عبد العزيز: كان لليث أربعة مجالس كل يوم: مجلس لحوائج السلطان، ومجلس لأصحاب الحديث، ومجلس لأصحاب المسائل، ومجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده صغرت حاجته أو كبرت.(٤١).



مالك والشافعى

ويذكر فى كثير من الكتب أن الليث كان معاصرا لمالك حتى إن البعض قد عقد بالفعل صلة بينهما فيقول سعيد بن أيوب: لو أن مالكا والليث اجتمعا لكان مالك عند الليث أبكم ولباع الليث مالكا فيمن يريد.

بينما يقول ابن وهب قولا أكثر منطقية وتخفيفا من السخرية: لولا مالك بن أنس والليث بن سعد ما كنت أظن أن كل ما جاء فى النبى ﷺ يعمل به.

ويقول أبو صالح كاتب الليث: كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا (أى احتجب) فقلنا: ليس يشبه هذا صاحبنا قال: فسمع مالك كلامنا فأمر بإدخالنا عليه فقال لنا: من صاحبكم؟ قلنا: الليث بن سعد. قال: تشبهوننى برجل كتبت إليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا وبعنا الفضل بألف دينار.(٤٢)

وتظهر كتب التاريخ أن الليث بثرائه ومروءته يصل مالك بمائة دينار فى كل سنة حتى لا تأخذه حوائج الحياة بعيدا عن العمل فى فقه الحديث والسنة.

فما أراده الليث هو تيسير الطريق لمالك وكأنه يدفع الأذى عن طريق مسلم عالم حيث إن الظروف كانت تضطر مالك إلى الاستدانة وكان الليث يسانده فى كل أموره المادية والحياتية حتى يقال إنه أرسل ثلاثين جملا لمالك عندما تزوجت ابنته.

وأما الشـافعى فقد مهد الليث طريقه. وعند وصول الشافعى إلى مصر تعـرف إلى فقه الليث وجعله في كتابه الأخير: «الأم» الذى خطه بمصر قبل وفاته. ويضم مجمل فكره وأفضل ما كتب الشـافعى فى حياته حتى إنه قد وقف يوما على ضريح الإمام الليث قال: لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم: العلم والعمل والزهد والكرم.

فالليث لم يكن ليتعصب حتى إن الناس قد فشلوا فى أن يأخذوا عليه تعصبـا فقرأ بقراءة أهل المدينة وإن كان قد تلقى القراءة على نافع الذى يلتقى معه فى الأصل الفارسـى والانتماء لمدينـة أصفهان حتى لا يقال إنه يتعصب لبنى جنسـه فالمسلمون سواسـية، ولهذا وبسبب طبيعته السمحة كان الشافعى يقول إن الليث أفقه من مالك.

وفى الختام

ويأتى يوم الجمعة فى النصف الثانى من شـعبان عام ٦٦٦هـ ليكون الليث قد زاد عن الثمانين عاما لتشـهد مصر وفاته وجنازته والتى كما جـاء فى «الدر المنظم فى زيـارة الجبل المقطم» لم يكن هناك ما هو أعظم منها ولا أكثر خلقا.

فقد وقف الناس وعليهم الكآبة والحزن يعزون بعضهم البعض ويبكون. فقد كان عالما كريما، غزير العقل وحسن الفعل لا يرى مثله أبدا وكان كل جزء من بر مصر يعرفه وقد بكاه خط الحمراء ومكان صلاته وسفينته التى كانت تقله وأهله وخدمه من رشيد والإسكندرية إلى الفسطاط.

وتقول د/ سعاد ماهر إن أبا زيد المصرى وهو أحد كبار تجار مصر بنى على القبر حتى إذا ما جاء زمن المماليك جددت القبة فى عصر السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون وجدد الضريح فى آخر أيام الناصر فرج بن برقوق وكتب على القبة... هذا مقام السيد الإمام الليث بن سعد نفعنا الله به آمين.

وتأتى امرأة دمشقية اسمها مرحبا بنت إبراهيم فى زمن السلطان المؤيد شيخ لتجدد المسجد وتقيم مئذنة للجامع.

ويقرر من بعدها الأمير يشبك بن مهدى وهو أحد أمراء الأشرف قايتباى - وله فتوحات كبيرة فى مجال العمارة الإسلامية ومنها القبة الفدوية الشهيرة - إنشاء مئذنة فى الطرف الجنوبى الغربى.

ويستكمل سيد البنائين السلطان الغورى الذى تشهد له آثار الغورية كلها تجديد المسجد فى عام ١٥٠٥م وإضافة إيوان وباب كتب عليه بالنسخ المملوكى: «أمر بإنشاء هذا الباب الشريف من فضل الله تعالى سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الأشرف قنصوه الغورى عز نصره، وكان الفراغ من إنشاء هذا المكان فى مستهل رجب الفرد من سنة إحدى عشرة وتسعمائة».

ويجددهما فيما بعد الأمير موسى جوريجى ميرزا مستحفظان الذى يجدد المقصورة أيضا إلى جانب المسجد والقبة حتى نصل إلى عصر إسماعيل بك راتب فى زمن الأسرة العلوية الذى يجدد المسجد تجديدا شاملا ومهما فى السبعينيات من القرن التاسع عشر.

وأما زمننا الحالى فقد شـهدت فيه وبشـكل شخصى تجديدا كبيرا لهذا المسـجد المنسـى والذى قـد كان أهل الحى يتبركـون به فيدفنون موتاهـم إلى جانب قبر الإمـام الليث وهو الأمر الـذى قد عرض المكان للكثير من الإهمال.

وأما عمارة المسجد فتضم قبتين أولاهما للإمام الليث عبارة عن حجرة مربعة بها محرابان حجريان محمولة على أربعة أعمدة رخامية لعلها الوحيـدة الباقية من عمارة أبى يزيـد المصرى وتحتها تركيبة رخامية حولها مقصورة خشـبية مطعمة بالصدف ترجع إلى عمارة الأمير موسى جوريجى والأخرى صغـيرة تضم محمد بن هارون الصوفى خادم الإمام وقبر شعيب ابنه.

و يتوقـف عنـد ما يحفل به الأثـر بالكثير من الكتابـات العربية المنتشرة بين أجزائه ومنها أعلى المدخل بعد البسملة(٤٣).

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٢٣].

هذا مقام سـيدنا ومولانا الإمام الليث بن سعد متعنا الله تعالى ببركته، وجزء على المقصورة من قصيدة البردة:

أمن تذكر جيـران بـذى سلـم	مزجت دمعا جرى من مقلة بـدم
أم هبت الريح من تلقـاء كاظمـة	وأومض البرق فى الظلماء من إضـم
فما لعينيك إن قلت اكففـا همتـا	وما لقلبك إن قلت استفـق يهـم
أيحسب الصب أن الحـب منكتـم	ما بين منسجـم منـه ومضطـرم

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ولا أرقت لذكـر البـان والعلــم
فكيف تنكر حبا بعد ما شهــدت به عليك عـدول الدمــع والسقــم
وأثبت الوجد خطي عبرة وضنـــى مثل البهار على خديـك والعنــم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقنـى والحب يعترض اللـذات بالألــم
يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة منى إليك ولو أنصفت لـم تلـم
عدتك حالى لا ســرى بمستتـــر عن الوشاة ولادائـــى بمنحســم
محضتنى النصح لكن لست أسمعـه إن المحب عن العذال فـــى صمـم
إنى اتهمت نصيح الشيب فى عذل والشيب أبعد فى نصح عن التهـــم
(٤٤).

أما مقصورة الضريح فإن واجهاتها الأربع تشـتمل نصها بعد البسملة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٥] إلى قوله عز وجل ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [سـورة البقرة آية: ٢٥٧].

وأما القبة فقد كتب عليها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [سورة الفتح آية: ١]. إلى قوله عز وجل ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [ســورة الفتح آية: ٣]. صدق الله العظيم وصدق رسـوله الكريم ﷺ سـيدنا محمـد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

ولاغرابة فى أن يضم مسـجد الإمام الليث كل هذه النصوص ..فهذه عــادة المعماريين فى بر مصــر عندما يبنون ضريحا لــولى من أولياء الله الصالحــين. فمابالنا بالإمام الليث إمام أهــل مصر الذى أهمل معاصروه من تلاميذه تدوين الكثير من فتاويه المصرية فلم يوفوه حقه.

فالحقيقة إنه فى مصر تولد كل يوم معجزة جديدة فى الفقه والمعمار والهندسة والأدب والعلم فيضن عليهم الناس بالتذكر.

وهـو فـى النهاية خطأ فادح لابد من تداركـه حيث إنه فى الكثير مـن الأحيان يذهب أنـاس يمثلون تجارب كبرى وتضيـع علينا فرصة الاحتفاظ بتراثهم كم هو الحال مع الإمام الليث.

وأما أبيات بردة البوصيرى التى كتبها المصريون على المقصورة فهى اختيـار ذكى واعتذار منهم عن عدم مراعاتهم لحق هذا الشـيخ الجليل فاختاروا أبياتا غزلية من بردة الإمام البوصيرى المباركة.

ففـى البداية يتسـاءل الإمام البوصيرى فى بردته الشـهيرة. وكما جاء فى شرح بردة المديح المباركة للإمام شرف الدين أبى عبد الله محمد البوصيرى لأسامة أبو خليل. عن سبب هذا الحال الذى عليه المحب من البكاء الشـديد الذى أجهد العين وكأن الدمع يختلط بالدم.. فهل حدث ذلك حينما تذكر جيرته فى المدينة المنورة من شدة الشوق.

فربمـا كانت الريح التـى جاءت من ناحية المدينـة المنورة هى من حرك هذه الأشواق أو لعله البرق الذى لمع والمسمى أضم.

فإذا لم يكن الشوق هو السبب فلماذا لا تكف العين عن الدمع. أكلما يحاول القلب أن يسـتعيد توازنـه زاد جنونه. فالحب حقيقة لا يمكن إخفاؤها أو الاستهتار بها وسيعلن الدمع عنه دائما.

ويكشـف البوصيرى عن مقصد الحب فى أبياته وهو سـيدنا محمد رسول الله ﷺ، وأما البان والعلم فهما موضعان بالقرب من مكة المكرمة.

فالحـــب لا يمكن إنـــكار إنه هوالدليل على وجود هــذا البكاء الذى يبدو وكأنــــه بالفعل اختلط بالدم. فمن يزره خيال حبيبه يجافيه النوم ولا يســتطيع الانتظار. فالحب شـــىء قهرى، فما بالنا بالحب المجرد لشخص الرسول الأكرم.

فــإذا ذاعت حكايات الحــب أصبحت مادة لهــؤلاء الذين يتتبعون أخبار الآخرين والذين لا يعرفون حقيقة حال المحب.

فهذا المحب لا يســتمع لنصائــح الآخرين ولا يكترث بمن يلومونه فالمحـــب لا يرى فـــى الآخرين الإخـــلاص حتى ولـــو كان الناصح ذلك المشيب الذى عركته خبرات الحياة.



الورقة السادسة
بئر يوسف

فى عمارة مصر وأثارها تكثر الروايات حول بئر يوســف الموجودة قبالة جامع الناصر محمد بالقلعة. وهذه البئر كانت تزورها النســاء بل والرجال طلبا للبركة لأنهم كانوا يعتقدون أنها بئر سيدنا يوسف عليه الســلام التى ألقى فيها فالتقطه أحد السيارة كما جاء فى سورة يوسف بالقرآن الكريم.

ولا أعرف لماذا يعتقد الناس أن هذه البئر هى نفسها البئر المذكورة. فالموجودة بالقلعة أنشــأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب «صلاح الديــن الأيوبى». وترجع الكتــب حقيقة حفرها وتشــييدها إلى وزيره الشــهير بهاء الدين قراقوش الذى كثيرا ما تندر به المصريون وما زالوا عندما يذكر الحكم المستبد فيضرب بحكم قراقوش مثلا.

والبئــر فى حقيقتها نحت فى الصخر لخــزن المياه اللازمة لجميع مرافق القلعة كما تشير موسوعة الآثار الإسلامية والقبطية وهى تتكون مــن ثلاث طبقات يلتف حولها ســلم حجرى حلزونى يضيق فى الطبقة الوســطى التى عملت فيها ســاقية خشبية كانت تســتخدم لرفع الماء. ويوجد بجوار كل طبقة من الطبقات عدة فتحات للتهوية والإنارة.

والحقيقــة التى تذكرها كتــب التاريخ أن مياه النيــل كانت تصل إلى القلعة فى قناة يحملها سور صلاح الدين من الفسطاط إلى القلعة. فقد كان من المفترض أن يكون أكبر اعتماد على مياه البئر فى أوقات الشدة والحروب.

ويقــول المقريزى: هذه البئر من العجائب اســتنبطها قراقوش، وهذه البئــر مــن عجائب الأبنية تدور البقر فى أعلاهــا فتنقل الماء من نقالة فى وســطها وتدور أبقار فى وســطها تنقل الماء من أسفلها. ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز وجميع ذلك فى حجر منحوت.(٤٥)

وبنظــرة إلى عمارة القلعة نجد أنها من أهم أثار العصر الأيوبى الذى لم يصل عمرها إلى أعوامه المائة. فقد كانت الدولة الأيوبية من أقصر الدول عمــرا فى بر مصر. إلا إنها مع هذا تعتبر دولة صاحبة بصمة كبيرة على حياة المصريين بل ويمكن اعتبارها بلا تردد علامة بارزة فى تاريخ مصر.

فعندما جاء صــلاح الدين إلى مصر تغيرت أحوال البلاد. فقد كان من الضرورى للبطل أن يكون بالفعل فارســا مــن الطراز الأول قبل أن يدخل حلبة الجهاد. وكانت مصر هى المكان فتغيرت من أجله وتغير من أجلها.

فبشــهادة التاريخ لم تكن المقدمات تنبئ بقدرة صلاح الدين للوصول إلى هذه المكانة المتميزة تاريخيا ولم تتوقع له أن يحقق كل هذه الأمجاد فهو ينتمى فى الأصل إلى أســرة حاكمة قيــل إن لها أصولا كردية وقيل أيضا إنها فــى الأصل تنحدر من قرية دوين فى أذربيجان. وقد انتقلت الأســرة إلى العراق حيث نزلت بتكريت ثم بغداد ثم دمشــق حيث نشأ صلاح الدين.

ويأتـى صـلاح الدين إلى مصر فى معية عمه أسـد الدين شـيركوه الذى يسـتنصره الوزير شـاور فى حربه مع الوزير ضرغام الذى كان قد استعان بالصليبيين. ويستتب الأمر لشيركوه ويرى الخليفة العاضد بالله الحديث السـن أن شـيركوه هو الرجل المناسـب للوزارة. ويصبح شـيركوه هو الوزير المناسـب فى الوقت المناسـب، ولكنه يموت بعد فترة أقصر من أن تعد.

فيقـرر الخليفـة العاضد بالله وإكراما لهذه العائلـة أن يصدر قرارا بتوزير صلاح الدين، ويسـتقر الوضع بشـكل أفضل للناصر صلاح الدين بعد أن يفقـد الصليبيون الكثير من قوتهم بعد مـوت الملك أمورى ملك بيت المقدس ويعتبر وجوده فى مصر فألا حسنا لكل المصريين.

ويموت الخليفة العاضد بالله الذى كان فى حقيقة الأمر آخر الخلفاء الفاطميين ليملك صلاح الدين الأيوبى مصر والشـام والحجاز واليمن، ولا يقتتـل الناس من أجل بقاء الدولـة الفاطمية التى كانت قد لفظت أنفاسها فى صمت، وكأن الزمن قد أعلن وفاتها بعد أن عدمت فرسانها. فلم يبق من سـيرتها فى مصر المحروسـة سـوى العديد من المساجد وأضرحة آل البيت.

فقـد تتناول كتب التاريخ الأحوال فى بر مصر ولا تتوقف كثيرا أمام شـعور المصريين تجاه هذا القائد الفذ الذى وضعتـه الأقدار فى طريقهم خاصـة إنـه كان عليـه تنظيم الداخل والخـارج فى مواجهة السـرطان الصليبى الذى كان قد استشرى فى آخر سنوات الفاطميين فى مصر.

وينذر صلاح الدين حياته لهذا الهدف. ويثبت للجميع حنكته كقائد من خلال سلسلة من المعارك الحربية التى تصيب أعداءه بالذهول. فمنذ زمن ليس بالقصير نسـى الشرقيون هذه الروح القتالية الجماعية وجاء صـلاح الدين ليجمع الناس من حوله وليتقدم بخطى ثابتة نحو تحرير الأرض العربية من أيدى سالبيها.

وتتتابع السـنوات وصلاح الدين الأيوبى يعمل فى مشروعه الخاص الـذى كان فـى الأصل مشـروعا وحدويـا يقصد به جمـع كلمة العرب والمسـلمين لمحاربة الصليبيـين. فقد فهم صلاح الديـن أنه لا أمل فى الانتصار إذا كان المسـلمون برغم كثرة عددهم واتسـاع رقعة بلادهم لا يجتمعون على كلمة واحدة.

فمشـكلة الحروب الصليبية سـوف تتكرر فى العالم الإسلامى إذا أصر الحكام على الانطواء والتقهقر إلى الداخل، كما أن الخطر سـيكون أكـبر إذا مـا أصروا على الاختـلاف لتتحمل أوطانهـم أوزارهم وتجد نفسها وحيدة فى مواجهة الأخطار.

ربما يظن من يقرأ أن كل هذه الأشـياء تبدو مـن البدهيات التى لا تحتاج تعلم أو توقف عندها إلا أن كرسـى الحكم فيما يبدو يمثل نقطة تحـول وإغواء من نوع خاص عند من يجلس عليـه حتى إن الكثير من أصحاب النفوس الضعيفة ينسـون مثل هذه البدهيات فمجاهدة النفس حرب كبيرة لا يعرفها إلا الواصلون والسالكون لطرق الخير.

فـإذا ما صلح أمـر الحاكم أصلح الله تعالى له بطانته وأرسـل إليه خيرة البشـر يسـاعدونه. وقد تحقق لصلاح الديـن الأيوبى كل هذا عندما أرسـل إليـه رجلين من خـيرة الرجال وهمـا القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى اللذان أعطيـاه خبرة تجربتهما فى الحياة والتى كانت كفيلة برفع أسهمه.

فقد يحدث أن تلتقى فى كتب التاريخ بصانعى النجوم والشخصيات العظيمة الذين يظلون دائما على هامش سـيرة النجم أو الشخص العظيم وقد كان هذان الرجلان مثلا حيا لهذه الحقيقة.

والغريب فى قصة صلاح الدين ليس فقط شـخصيتى القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى اللذين يعتبران الجنديين المجهولين فى مسيرته.. وإن كان الرجلان حجة لنجاح الناصر صلاح الدين

والقاضـى الفاضل هو ابن مدينة عسـقلان حيث ولد ثم ذهب بعدها إلى الإسـكندرية ثم القاهرة فى أواخر زمن الدولة الفاطمية ليعمل كاتبا فى ديوان الظاهر بالقاهرة. فلم يعمل بالقضاء كوالده وجده اللذين كانت نزاهتهما مضرب الأمثال.

فقـد قرر القاضـى الفاضل عدم اختيار هذا الطريـق بعد أن وجد أن الكتابة هى أفضل الطرق ويلتقى بالناصر صلاح الدين فينبهر برسـالته ويكتب من أجله الكثير من الخطب الحماسـية والرسـائل التى تؤلف قلوب الناس من حوله.

وتتطور علاقتهما فيصبح المستشـار الأول لصلاح الدين والشخصية الأقرب خلف السـتار الذى ينفعـه بالكثير من النصائح التى يعمل بها صلاح الدين فيعترف لفرسانه بأنهم فى حقيقة الأمر لا يفتحون البلاد بسيوفهم بل بقلم القاضى الفاضل.

ويصفه العماد الأصفهانـى بأنه رب القلم والبيان وصاحب البصيرة النفـاذة والبديهة المعجزة. وقد عـاش لزمن بعد موت صلاح الدين وفيا لمبادئه حتى وافته المنية فى عام ٥٩٦هـ، ودفن إلى جوار الصالحين بجبل المقطم.

أما العماد الأصفهانى فهو الشـخصية الأخـرى صاحبة التأثير فى زمن صلاح الدين الأيوبى، ولد فى مدينة أصفهان الإيرانية ثم انتقل إلى بغداد حيث تلقى تعليما جيدا فى المدرسـة النظامية وهو ما فتح أمامه الطريق للترقى حتى أصبح نائبا للوزير ابن هبيرة.

وبرغم أنه كان يعيش فى دمشـق وفى معيـة نور الدين زنكى فإنه لا يلتقى بصلاح الدين الأيوبى إلا بعد أن عرفه عليه القاضى الفاضل.

ويعين صلاح الدين العماد الأصفهانى نائبا للقاضى الفاضل ويمتد نفوذه إلى نصح صلاح الدين الأيوبى بما يراه فى مصلحة الأمة لتنتهى حياته هو الآخر بعـد موت صلاح الدين الأيوبى بعدة سـنوات يتفرغ خلالها لعمله الأدبى والتصنيف فيتوفى عام ١٢٠١م، ويحسـب لصلاح الدين أنه بالفعل نجح فى أن يطير فوق الأزمات بجناحى القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى فيحقق ما لم يحققه غيره من قادة المسلمين فى زمنه.

أما القصة الأخرى فهى حطين التى اعتبرت معركة فاصلة فى التاريخ العسكرى الإسلامى. فعلى الرغم من أن الكثير من المعارك قد خاضها صلاح الدين فإن وجود قوات صليبية بهذا الحجم المؤثر ووجود قادة أوربيين محنكين من أمثال ريتشارد قلب الأسد الذى كان هو الآخر أسطورة يذكرها الإنجليز إلى الآن كان يمكن ألا ينهى هذه المعركة لتستمر إلى ما لا نهاية.

فقد جاء ريتشارد إلى الشرق بعقلية المحارب، وأراد أن يثبت لنفسه أن ما يقاتل من أجله هو حقيقة وضرورة دينية. واستمر يرعى هذا المنطق ويتبناه حتى قتل فى إحدى المعارك فى أسبانيا.

وبعد سنوات من التصدى والمقاومة ترجح كفة صلاح الدين الذى لم يكن صلح الرملة الذى عقده مع الأوربيين إلا تحقيقا لأمله فى الخروج من المأزق الذى فرض نفسه على أراضى العرب والمسلمين.

فمن المفيد أن نقرأ قصة حياة صلاح الدين الأيوبى كاملة وأن نبحث عن كتب تتناول هذه الفترة المبهرة من تاريخ الإسلام والمسلمين، فى وقت كانت الأمة تستعد للنهوض على قدميها من جديد بعد أن أصاب النخر بعض عظامها وهو الأمر الذى لم تستسلم له أبدا بفضل رجال صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه.

إلا إننا نضطر فى النهاية أن نتوقف عند نهاية القصة عندما ذهب صلاح الدين وهو فى الخمسينيات من عمره ليودع مجموعة حجاج ذهبوا لأداء مناسك الحج وهو أمر لم يكن باليسير عليه وخاصة بعد أن نصحه

مستشـــاروه بعدم السفر للأراضى الحجازية لان هذا يمكن وبسهولة أن يعرضه لهجوم الفرنجة وأسرهم له فى أبسط تقدير.

وبرغم أنه مشهد متكرر إلا أن كل من رأى صلاح الدين يومها حكوا بأنــه ذرف الدمع كما لم يحــدث فى أى موقف فى حياتــه وأنه اهتز عاطفيا لهــذا المنع المفروض عليه ...أما ما حدث بعدها فلم يصدقه أحد فبعدهــا بأيام قليلة رحل الفارس عن الحياة وترجل عن فرســه بعد أن أدى مهمته فى هذه الحياة بنجاح مبهر.

وقد رحل فارس الفرســان ولم يحقق أمنيتــه الأقرب إلى قلبه وهى حج البيت لأنه لم يستطع إليه سبيلا... ولهذا نسألكم الفاتحة والدعاء لهذا الفارس.

ولكن ما الرابط بين بئر يوسف التى تنسب إلى صلاح الدين الأيوبى وقصة ســيدنا يوســف عليه السلام. هذا ما لا أعرفه وأتمنى أن أجد الإجابة إذا كان يعرفها أحد.



الورقة السابعة
خلوة جاهين

أما صاحب هذا المسجد الغريب والجميل فى الوقت ذاته الذى يبدو على رأس جبل المقطم أمام مقام مولانا عمر بن الفارض سلطان العاشقين وإمام الصوفية فهو جاهين الخلوتى.

وقد يتعجب أى إنســان لهذا المسجد والقبة المعلقة، ويتساءل بينه وبين نفســه عن ســبب وجودها فى هــذا المكان وهل هــى منحوتة فى الصخر أم أنها مجرد بناء له شكل خادع.

وقبــل أن يأخذنا خيالنا بعيــدا نقرأ ما جاء عن هــذه الخلوة التى تخــص جمال الديــن عبد الله نجل العارف بالله الشــيخ جاهين بن عبد الله الخلوتى.

والغريــب أن هذا العارف بــالله تنتمى أصولــه إلى بلد آخر، فهو ابــن مدينة تبريز الإيرانية وقد قدم إلى مصر مملوكا فى عهد الســلطان الأشــرف قايتباى. وإن لم تستهوه حياة الجندية فلم يحلم بالترقى فى القصــور المملوكية فكانت عزلته بعيدا عــن القيل والقال وحفظه للقرآن الكريم ومصاحبة العلماء هو كل ما يرغب فى هذه الحياة.

فما كان من الســلطان الأشــرف قايتباى إلا أن أعتقه، وهو المملوك القريب إلى نفسه ليعود مرة أخرى إلى تبريز ليتتلمذ على يدى العارف

بالله الشيخ عمر التبريزى ثم يعود إلى مصر طلبا لصحبة الشيخ محمد الدمرداش الذى كان من عمق ارتباطه به يسميه الناس باسمه حتى ترك كل شيء وذهب إلى جبل الأولياء ليحفر لنفسه وبنفسه قبرا.

ويقام بعد وفاته هذا المسجد الذى لم يبق منه غير واجهة حجرية واحدة وباب يعلوه قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [سورة التوبة آية: ١٨].

ويقول الرحالة النابلسى كما جاء فى «الخطط التوفيقية» لعلى باشا مبارك: دخلنا مزاره ورأينا مقامه فى ذلك الجامع يطل على مزارات القرافة المباركة وفيه منبر ومحراب لإقامة صلاة الجمعة.

وهناك ثلاثة قبور القبر الكبير قبر الشيخ جاهين وبجانبه قبر ولده الشيخ جمال الدين ثم قبر ولده الشيخ محمد جاهين فوقفنا هناك وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى.

وتتعرض موسوعة «آثار القاهرة الإسلامية فى العصر العثمانى» لتفاصيل كثيرة لهذا المسجد الذى لم يتبق منه سوى واجهته كشاهد على خلوة هذا الصوفى الجليل.

فقد كان المكان فى الأصل منشأة كبيرة تشبه الضاحية المعلقة بالجبل. وكانت كل تفاصيل الحياة اليومية كاملة بها فيوجد خزانات للمياه ومساكن ومرافق كاملة المنافع وهو ما يعنى فكرة الاكتفاء الذاتى.

ولاعجب فـي انتقال الحياة إلى هذا المـكان، فنحن فى النهاية فى جبل المقطم المبارك الذى اعتبر مكانا للعبادة والاختلاء بالذات منذ أيام الإسلام الأولى فى مصر.

«فالمساحة الهائلة» فيما بين مدينة الفسطاط غربا وجبل المقطم شرقا مسـرح واسع للمنشـآت الدينية والجنائزية والترويحية، حيث كانت القرافـة الكبرى تحتل هذه المسـاحة، وتتصل بجبـل المقطم الذى كان محلا معتبرا ذا قدسـية وخاصة المواضع التى بسفح المقطم فإنها عمرت بالمنشـآت الدينيـة المهمة، كما ضمت أراضى هذه البقاع أجسـاد أعداد كبيرة من مشـاهير الصحابة والعلماء والأولياء على مر العصور بل دفن فيها أيضا عدد كبير من الأمراء وبعض السلاطين.

ونذكـر ممن دفن فيها على سـبيل المثال الصحابى الجليل سـيدى عقبـة بن عامر الجهنى والى مصر، والصحابى عمرو بن العاص والإمام الشـافعى وأحمد بن طولون وطغج الإخشيدى والليث بن سعد والقاضى بـكار بـن قتيبة وابـن حجر العسـقلانى وذا النون المصـرى وعمر بن الفـارض والفضل بن الفضيل وعز الدين بن عبد السـلام والمظفر قطز ثم أخيرا إبراهيم باشا فى القرن التاسع عشر الميلادى.

ومازالـت تلك البقعة مدفنـا لكثير من الأمـراء والخاصة والعامة إلى وقتنا هـذا. أما الموقع الخاص بجامع جاهـين الخلوتى فله أهميته الخاصة إذ توجـد حول هذا الجامع مواضع تاريخية مهمة منها جامع محمود الشهير ومشهد اليسع وروبيل إخوة يوسف عليه السلام.

ومنهـــا العارض وهى مغــارة فى الجبل عمرت بأمـــر الحاكم بأمر الله وأنشــئت فيها مئذنة، يقول المقريزى: وهى باقية إلى اليوم وتحت العارض قبر الشيخ العارف عمر بن الفارض رحمه الله وقد قال القائل: وقل السلام عليك يا ابن الفارض.(٤٦)

فلــم يختر جاهين الخلوتــى لِتعبده إلا موقعا مبــاركا وكأن جميع رجــالات مصر الصالحين قد اتفقوا فيما بينهــم على اللقاء فى المقطم أو أن هناك فريضة مصرية تقضى بدفن كل من صلح حاله وقلبه ورضى من الحياة بما قسمه له ربه سبحانه وتعالى فى هذا المكان ليلتقوا جميعا من كل عصر فوق هذه الأرض المصرية المباركة.

ويعــد جاهين الخلوتى حالة حضارية فريــدة إذ إنه فى الأصل من أبناء تبريز وتتدفق فى عروقه الدماء التركية والفارســية ويعيش على أرض إيرانية.

فهـــو واحد من أبناء فارس النجباء ولكـــن الصدفة وحدها هى التى حملتـــه إلى مصـــر وجعلته مملوكا للأشـــرف قايتباى ليجـــرى عليه ما يجرى على غيره من المماليك.

إلا إن تركيبته الحضارية المتميزة قد جعلته ينظر إلى مصر بمنظور مختلــف. فلم يقنع بأن يكون مملــوكا أو أن يعيش حياة المماليك لتكون كل مهمته فى الحياة هى الحرب والاقتتال.

فهذه مصـــر تناديه بكل شـــوارعها وأزقتها وعلمائها ومســـاجدها وناسها الذين يألفون الغريب إذا ما ثبتت حسن نواياه.

والحل هو العودة إلى البلاد للاستزادة من العلم ووضع الأقدام على الطريق الصحيح ثم العودة مرة أخرى إلى أرض المحروسة مصر، بعد أن يشتد العود لمتابعة الطريق الذى لم يكن يستطيع السير فيه دون استحضار تجربة بلاده.

ويعود جاهين إلى مصر بعد أن يحصل على تجربة التعلم فى بلاده ويقرر أن ينزل بالمقطم وفى هذا المكان المتواضع الذى قدره له الله سبحانه وتعالى فيحفر لنفسه قبرا ويستمر بالمقطم لمدة تصل إلى الثلاثين عاما إلى أن توفاه الله تعالى وكأنه كان على موعد مع هذا الجبل الذى استقبل صلواته واعتزاله الحياة.

ومن يذهب إلى المقطم اليوم وفى نفس مكان جاهين الخلوتى يجد هذا البناء الضخم الذى يظهر منه جدرانه الأمامية فقط.

وبالنسبة للمئذنة فهى مئذنة عثمانية لا تختلف فى الكثير من تفاصيلها عن بقية المآذن العثمانية التى توجد على بر المحروسة من حيث التصميم، ولاتزال المئذنة موجودة بشكل ينبئ عن ماهية البناء الضخم. ويقال إن المسجد قد بنى فى الأساس بإشراف جاهين الخلواتى وأن هناك الكثير من الأجزاء فى المسجد تنتمى إلى عصور مختلفة.

ومحراب المسجد مبنى من الحجر النحيت ويحمل تاريخ البناء المنقوش ضمن النص المنحوت على عتب الباب وهو سنة ٩٤٥هـ. ثم كسى بالرخام الملون الذى اختفى الآن.

والمئذنة المنفصلة يلاصقها بناء ضيق من الحجر به شباكان ويوجد مبنى مواجه لباب المسجد نحو القبلة داخله قاعة مستطيلة حائطها الشرقى

الجبل وإلى الشمال الشرقى من هذه القاعة تقع القبة الشاهقة المبنية بالطوب وبرقبة القبة شباكان واحد مفتوح والآخر مغلق على التوالى.

أما المبانى الحاملة لها فمبنية من أسفل بالحجر النحيت مثل مبانى القاعة بالخارج. وكان يصعد إلى القاعة العليا عن طريق درج يقع بطرف هذه القاعة من الغرب. ولهذا السلم شبابيك ضيقة تفتح أما الجهة الشمالية للسلم فقد تهدمت ثم انهار السلم فى النصف الثانى من الثمانينيات من القرن العشرين.(٤٧)

وعلى وجه الجبل يقوم برج ضخم مبنى بالحجر تعلوه أطلال راكبة على الجبل. ويدل ذلك على وجود ساقية تأخذ من البئر المقام عليها هذا الدرج ومبانى هذا البرج تذكرنا بمبانى العصر الأيوبى أو عصر المماليك البحرية.. عصر السلطان الظاهر بيبرس أو الناصر محمد بن قلاوون.

وصف تفصيلى قد يأخذنا إلى مقام العارف بالله جاهين الخلوتى وإن كنا لا نجد فيه سوى امتداد لفكرة جبل الأولياء. فهذا المقام ربما غاب عن الذاكرة المصرية إلا إنه يظل خالدا بموقعه فى المقطم جبل الأولياء الذى طوفنا به وإن لم ندخل من كل أبوابه .فهو ليس مجرد مكان بل تقرير كامل للهوية المصرية التى توجد كل حكاياتها تحت ثراه.

فمنذ جاء عمرو بن العاص فاتحا مصر وحتى زمننا هذا دفنت به الكثير من الروايات وأصحاب الروايات من المصريين والمتمصرين.

فهنا آل بيت النبى ﷺ... وهنا كبار الدعاة والمفكرين.. وهنا قادة العرب والمسلمين.. وهنا أبناء الأسرة المالكة. وأبناء الطبقة المتوسطة وأولاد البلد المصريين فإلى الجميع تحية وسلام.

دقات على باب مصر
الأيام المصرية لابن خلدون

هذا حديث آخر فارســه ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون والذى قد بلغ الثانية والخمســين مــن العمر وهَمَّ بزيــارة القاهرة. فكتب يقول: «ســألت صاحبنا قاضي القضاة بفاس وكبــير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقرى كيف هذه القاهرة؟ قال: من لم يرها لم يعرف عز الإسلام وسألت شيخنا أبا العباس بن إدريس كبير العلماء ببجاية فقال: كأنما انطلق أهلها من الحســاب لكثرة أممه وأمنهم العواقب وســألت الفقيه الكاتب أبا القاسم البرعي فقال: إن الذى يتخيله الإنسان فإنما رآه دون الصورة التى تخيلها لاتســاع الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها».

وهكــذا يمكن القــول إلا القاهرة... فبنص وصف ابــن خلدون هى حاضرة الدنيا وبســتان العلم ومحشر الأمم وإيوان الإسلام وكرسى الملك التــى يبــدو نيلها وكأنه نهر مــن الجنة فهى البلد الــذى له مداه فى العمران واتســاع الأحوال ومن يره لم يصدق زحام المارة والأسواق. وهى البلد التى اســتقرت فيها حياته وحتى الممات بعد أن عايش الكثير من الأمم والممالك.

هــذه كلمات للمفكــر العربى الكبير ابن خلــدون يحكى عن مدينة القاهرة التى جاءها وهو فى الثانية والخمســين من العمر، واســتقرت

حياته بها بعد أن عاش فى الكثير من الأمم وخبر البلاد والمسالك وقد جاء بعد أن عقد العزم على استهلال القاهرة للاشتغال بالجامع الأزهر بداية من شهر رمضان عام ٨٧٤هـ. كما يؤكد المؤرخ المقريزى وابن حجر العسقلانى وابن تغربردى وكل من عاصروا سنواته المصرية.

وبداية قبل أن يأخذنا الحديث بعيدا فربما يفيد أن نتعرف إلى ابن خلدون من قرب وإن كنا بداية نسجل فى هذه المساحة كلمة عن علم الاجتماع الذى ولد على يديه والذى كان كائننا محظوظا حقا بتجربة هذا الرجل العريضة فى الحياة والتى لولاها لما أصبح هناك علم بهذا الاسم.

ولد ابن خلدون فى تونس عام ٧٢٣هـ. وكانت عائلته فى الأصل تعيش فى أشبيلية ثم نزحت بعد ذلك إلى سبتة ثم إلى تونس.

فكما يقول د/ الحسين اليعقوبى فى مقاله «بنو خلدون: من أشبيلية إلى تونس» يجمع أهل العلم أن الاسم «خلدون» المسبوق بابن ليس كنية لهم وإنما هو اسم الشهرة لخالد الداخل إلى الأندلس. وقد صار اليوم ينصرف إلى مؤلف العبر وهو اسم عربى مشتق من الخلد ومعناه الدوام، واسم خالد واسم أبيه عثمان قديمان. وهما مما كان يتسمى بهما العرب الخلص ويؤكد عروبتهما نسب سلالتهما العربية المرفوع حسب التعريف من وائل بن حجر إلى قحطان ويؤيدها انتماء أصلهما إلى الأخيار من قبيلة حضرموت أصيلة اليمن قاعدة ملوك حمير والتبابعة.(٤٨)

ولعل هذا النسب وفى رأى الحسين اليعقوبى هو ما مهد له الطريق لكى يبحث دائما وطيلة حياته عن مكانة عالية. فابن خلدون كان دائما يخطب ود أصحاب المكانة الرفيعة من السياسيين وذوى الرئاسات العليا.

وهــو موقــف لا يختلف عليه الكثــيرون ممن كتبوا عــن ابن خلدون وبعضهــم يقول إنه لم يكن مؤرخا ولا عالم اجتماع أو أن هذا العلم قد ولد محظوظا فى بلاط السلطان وأن ابن خلدون نفسه كان يتقن لعبة السلطان.

وعن هذا يفرد المقال نفســه أنباء أخرى عن أنه من السذاجة حينئذ أن يصدق المرء أن ارتحالهم عن المشرق كان مجرد تنفيذ لمقتضيات سياسة الوليد بن عبد الملك الهادفة إلى خلق توازن عرقي.

وإنمــا قد يكون دفــع إليه الدم الجارى فى عــروق القحطانى بحب الرئاســة والرغبة فى الاســتقلال بإمارة. وهى نــوازع حركت فى تلك الوهلة جميع الأســر العربية الأرســتقراطية لطلب الرئاســة على أثر انتقال عاصمة الأندلس من أشبيلية إلى قرطبة.

إنهــا برزت بصورة أجلى فى المنافســة الشرســة التــى أبداها بنو خلدون حيال بنى عبدة وبنى حجاج على ولاية قرمون وأشــبيلية، وأما فكرة التوطن بســبتة بعد الرحيل عن أشبيلية فقد خامرت بنى خلدون منــذ أمد إلا إنها ربمــا لم تلح عليهم إلا إثر إيــال الأمر إلى أبى عمرو وابن الجد وقتل عام ٦٤٤هـ. لتجرثه عام ٦٣٠هـ. على أثر طرد بيت بنى الحجاج أعتى منافسيهم على السلطة من أشبيلية إلى سبتة.

ولعل اضطراب الأحوال السياسـية بها وتوالى أعوام الشدائد عليها مثل العام المشهور عند أهل سبتة بعام جنوة وهو عام ٦٣٣هـ. وقيل عام ٦٣٦هـ. وعام ســبعة أى عام ٦٣٧هـ. وهو عام المجاعة هو ما أرجأ تنفيذ فكرة الهجرة مدة ناهزت عقدا من الزمن.

ومما لا شك فيه أن قرار الرحيل عن أشبيلية لم يتخذه بنو خلدون نتيجة الخشية من سوء العاقبة فقط وإنما كان أيضا لتوجس الشر من عواقب مواقفهم السياسية من تنافس ابن هود وابن الأحمر على السلطة من ناحية، ومن استشراف قلة ما صار يمسك ما بقى من رمق الأندلس بعد ما عمت الثورة كامل أرجائها وازدياد الضغط النصرانى عليها من ناحية أخرى، وربما يعود تاريخ آخر عهدهم بأشبيلية إلى ما بعد مقتل ابن هود سنة ٦٣٥هـ. واستيلاء ابن الأحمرعلى غرناطة سنة ٦٣٦هـ.(٤٩)

وبرغم أن هذا الحديث حول نسب ابن خلدون ربما يعطينا فكرة عن حجم الأمواج المتلاطمة التى كانت تعيشها الأندلس والتى اعتبرت فى كل مراحل تواجد المسلمين بها مثلا جيدا لتعايش أصحاب الديانات المختلفة إلا إنها وفيما يبدو كانت أيضا أرضا للتنافس لم يعرف له مثيل.

كما أنها كانت من أهم الكيانات التى لولاها لما استمرت مسيرة الاستعارة الأوربية من العلوم الشرقية.

إلا إن هناك أسبابا أخرى لهذا السلوك الخلدونى الذى اتبعه ابن خلدون خلال حياته والذى جعله عالما بحياة المجتمعات يتلخص فى رحلة حياته الطويلة والزاخرة بالأحداث والشخصيات المهمة التى قدر له الله تعالى أن يلتقى بهم.

فعندمــا بلغ ابن خلدون الثامنة عشــرة اجتاح وبــاء الطاعون بلاد المسلمين حتى إنه وكما أشار د/ على عبد الواحد وافي في كتابه: «عبد الرحمــن بن خلدون» حياته وآثاره ومظاهر عبقريته أهلك في يوم واحد بتونس ألفا ومائتي نســمة وبتلمسان بالجزائر سبعمائة نسمة. كما أنه أيضا وفي هذا العمر الصغير قد شــهد هجرة معظم الأدباء والعلماء من تونس إلى المغرب الأقصى(٥٠).

والدخــول إلى حياة ابــن خلدون والتوقف عنــد تفاصيل تفاصيلها يشــبه الدخول فــي غمار البحر الهائج بلا خطــة أو خبرة ولهذا فما يهمنــا هو رحلته إلى القاهرة وهــي مبتغى القصيد والتي جعلته يرى عــن قرب دولة المماليك وحكمهم في مصر الذى كان حجر زاوية للقوة في جنوب البحر المتوسط.

فهم كما قال عنهم في كتابه «التعريف»: «أهل هذه الدولة التركية بمصر والشــام معنيون بإنشــاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لإقامة رســوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية الســنية وفي مطارحة الأفكار ونوافل الصلوات أخذوا ذلك عمــن قبلهم في الدول الخلافية (الخلافة) فيختطون مبانيها ويقفون الأراضــي المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم ومتدربي الفقراء وإن اســتفضل الريع شــيئا عن ذلك جعلوه في أعقابهم خوفا من الذرية الضعاف من العيلة (الفقراء) واقتدى بســنتهم في ذلك من تحت أيديهم من أهالي الرياسة والثروة.

فكثــرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة وأصبحت معاشــا للفقراء من الفقهاء والصوفية وكان ذاك من محاســن هذه الدولة التركية وآثارها الجميلة الخالدة.(٥١)

ويعيش ابن خلدون فى مصر متحليا بهذا المنطق الذى يجعله مقبولا من دولة المماليك ومن سـلطانها برقوق الذى يدخل ابن خلدون إلى أرضه المصرية عقب عشرة أيام من توليه الحكم وبخطاب توصية يرشحه لنيل الحظوة من الحكام المماليك.

فابن خلدون بحكم خبرته فى دوائر السلطان يعرف كيف يستميل برقوق المملوك الجركسى الذى وصل إلى سدة الحكم معتمدا على مهاراته العقلية والحربية والذى يريد أن يحصل على ترضية نفسية ممثلة فى ولاء العالم ابن خلدون لـه. فيقبل برقوق بوجود ابن خلدون فى معيته ويكتب إلى سلطان المغرب يقول: «لقد آثر ابن خلدون الإقامة عندنا بالديار المصرية، لا رغبة عن بلاده بل تحببا إلينا وتقربا إلى خواطرنا بالجواهر النفيسة من ذاته الحسنة وصفاته الجميلة»(٥٢).

ويحدث ما يقربه أكثر من السلطان، حينما يغضب السلطان على قاضى قضاة المالكية جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان بن خير غضبا يطيح به ليجلس ابن خلدون على هذا المقعد الوثير الذى لا يجلس عليه إلا كبار العلماء والمفكرين.

ويتقاسم مع قضاة المذاهب الأخرى الحظوة لدى السلطان إلى أن يثور يلبغا الناصرى نائب حلب على برقوق وتنتهى الثورة بخلع السلطان الشرعى برقوق فيختل توازن ابن خلدون ويتوارى نجمه مع من توارى نجومهم ويحسب ابن خلدون من ضمن المقربين إلى برقوق فيفقد مكانته وتذهب قوته.

إلا إن هـذا الحال لا يسـتمر طويلا حين ينجح برقـوق بعدها فى اسـتجماع قوته ويعود إلى عرشـه ويعتبر فعل يلبغـا الناصرى الثورى مجرد مؤامرة على السـلطان وشـرعية الحكم فيعـود ويعود معه مجد ابـن خلدون، وإن كان برغم نجاحه فى التخلص من آثار الماضى القريب الذى أخذ منه أكثر مما أضاف لا يستطيع أن يستعيد مكانته كاملة لدى برقوق وخاصة بعد أن فطن السـلطان إلى أن ابن خلدون كان أحد الفقهاء الذين وقعوا منشورا ضد برقوق بإيعاز من يلبغا الناصرى.

والحقيقـة إنـه كان قد أرغم على هـذا التوقيـع وإن كانت حقيقة دوافعـه غير واضحة. فإلى الآن لا يعرف أحد ما إذا كان ابن خلدون قد وقع على هذا المنشـور بدافع الخوف مـن بطش يلبغا، أم إنه وقع عليه بدافع البحث الدائم عن السلطان وإيمانا منه بأن من «غلب ركب»!

ويدفـع ابن خلدون ثمن هذا التوقيع بعزله من وظيفة شـيخ خانقاه بيـبرس إلا إنه يعاد مرة أخرى إلى منصب قاضى قضاة المالكية الذى قد تـرك مقعده لأربعة عشـر عاما كاملة لكيلا يعتقد أحـد أنه من الممكن لمخلـوق مهمـا بلغت درجة ذكائـه أن يصل إلى كل شـىء.. فحتى ابن خلدون الذى نتفق على دهائه ودبلوماسـيته الشديدة يترك السلطان لمدة أربعة عشر عاما ولا يقدر على شىء.

ولكى نفهم طبيعة الحيـاة المصرية فى هذا الوقت علينا أن نتعرف عـن قرب إلى المماليـك أو أصحاب الحكم الذين أسـهب ابن خلدون فى وصف سـلوكياتهم ومنهجهم والذين أصبحـوا حكاما بعد أن زاد نفوذ الأتراك بعد ضعف الحكم العباسى.

وهنـاك تفسـيرات تاريخيـة كثيرة لأصل نشـأتهم نختـار منها مـا يعتقده أحمـد مختار العبـادى الباحث من كليـة الآداب بجامعة الإسـكندرية من أن أصل نشأتهم كان فى آسـيا بعيدا عن القاهرة، وإن تأثروا فيما بعد بحياتهم على الأرض المصرية.

فالأصل فى وجودهم يعود «للدولة السـامانية التى قامت ما وراء نهـر جيحون واتخذت مدينة بخـارى عاصمة لها وقد أكدت حرص ملوك هذه الدولة برغم أصلهم الفارسـى على الجهاد فى وسـط آسـيا وجـذب المماليك الأتـراك والاهتمام بتربيتهـم وإعدادهم حتى صار معظم جيوشـهم منهم مثال ذلك ما قاله الملك نصر الثانى السـامانى مخاطبا أمراء دولته: «اتخذوا المماليك وأحسـنوا تربيتهم لأن التسلط علـى المماليك من عجز المقدرة وإنما يجب الرفق بهم والتوسـعة على نفقتهم وإطعامهم مما تأكلون».

كذلك أعطانا الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى وصفا دقيقا باللغة الفارسية لهذا النظام التربوى الذى وضعه السامانيون لمماليكهم فيقول: «إن مماليـك السـامانيين كانوا يرقـون تدريجيا بناء علـى خدماتهم وشجاعتهم وليس اعتمادا على المحسوبية أو الجاه».

وتبدو عملية الترقية نمطية من مملوك صغير يمشـى بجوار سـيده المتطـى صهوة الخيـل ثم الراكب لفـرس دون سـرج إلى أن يتم عامه الخامـس. وبعدها يمنح ملابس أفضل ثم يحصل فى عامه السـابع على خيمة وثلاثة من الرقيق.

وهكذا يختلف كل عام عمن سـبقه من الأعوام حتى يصبح أميرا فى سن الخامسة والثلاثين.(٥٣)

إلا إن هذا النظام أضافت إليه مصر فيما بعد. فلا يمكن أن يحسـب لهؤلاء المماليك أى وزن سياسـى إذا ما أسـقطنا تجربتهم العسـكرية والسياسية فى مصر.

فبمـوت الصالح نجم الديـن أيوب آخر الحـكام الأيوبيين فى ليلة النصف من شـعبان عام ٦٤٧هـ. بعد أن دافع عن أرض مصر للنهاية ضد قوات لويس التاسـع وقدر للمماليك أو القوة الجديدة التى اسـتعان بها الملك الصالح أن تظهر وأن يحتلوا مكانة عظمى لم تكن متوقعة ليس فقط على الساحة المصرية ولكن على الساحة الإسلامية ككل.

ذلك بأن السلطان المملوكى الحربى قد وصل إلى مساحات لم يتوقعها أحد لهذه القوة الوليدة. والسـبب وكما نعزى هو وجود مصر ضمن كيان ملكهم كنقطة انطلاق وقبول أساسية إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامى.

وهكذا انتشـر المماليك فى ربوع مصر وتملكوا الجيش وأصبح هناك أمراء العشرة الذين يحكمون عشرة من العسكر وأمراء المائة حتى يصعد النظام إلى «أمير مائة مقدم ألف» ثم أمير طبلخانة ويقول القلقشـندى: «أعلم أن كل أمير من أمراء المائة أو الطبلخانات سلطان مختصر فى أغلب أحواله... وتوصف البيوت فى دواوين الأمراء بالكريمة، فيقال البيوت الكريمة كما يقال فى بيوت السلطان البيوت الشريفة».(٥٤)

ولهـذا وكما يؤكد د.قاسـم عبده قاسـم فى كتابه «عصر سـلاطين المماليـك» كان طبيعيا أن تكون وظائف الدولة حكرا على أمراء المماليك. وهنا ينبغى أن نشـير إلى حقيقة أن نظام الحكم المملوكى فى مصر وبلاد الشام كان نظاما طبقيا فى علاقاته واتجاهاته.

وقد قسم عبد الرحمن بن خلدون المجتمع فى مصر فى عصر سلاطين المماليك إلى «سـلطان ورعية» وهو ما يصدق فى تقديرنا على بلاد الشـام أيضا. والراجح أن ابن خلدون يقصد بالسـلطان الجهاز المملوكى الحاكم والفئات التى تدور فى فلكه من المصريين.

أمـا الرعية التى يقصدها ابن خلـدون فهم المصريون بجميع فئاتهم وطوائفهم، ولم تكن العلاقة بين السلطان والرعية قائمة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة لأن ذلك كان أبعد ما يكون عن مفاهيم أولئك الحكام المجلوبين عبيدا فى طفولتهم.

وفى تصورنا أن المجتمع المصرى والمجتمع الشامى فى عصر سلاطين المماليك كانا مجتمعين يقومان على بناء طبقى حاد.

فثمة طبقة من الحكام العسـكريين لهم كافـة الحقوق والامتيازات ولهـم حـق الإدارة والحكم فضـلا عن أن المـوارد العامة مـن الأراضى الزراعية والمراعى والمصايد والغابات والأحراش والمسطحات المائية كانت بحوزتهم بحكـم القوانين الإقطاعية التى نظمت العلاقات داخل الكيان الإقطاعى العسكرى الذى جسدته دولة سلاطين المماليك».(٥٥)

يبدو أن دولة المماليك كانت قد أخذت فرصتها فى الظهور والتبلور قبل أن يأتى ابن خلدون إلى مصر، بل إن عصر المماليك الجراكسة كان قد أخذ هو الآخر فى البلورة وفرض نفسه على الساحة السياسية. فهؤلاء الجراكسة قد صعدت أسهمهم وأصبحت لهم السلطة بعد المماليك البحرية الأتراك برغم أن هذا الصعود لم يكن فى حسابات المصريين أو المماليك البحرية الذين لم يظنوا فى البداية أن استكثار السلطان المنصور قلاوون من المماليك الجراكسة الذين يسكنون شمال بحر قزوين وشرق البحر الأسود الذين كانوا فى حقيقة الأمر أرخص المماليك ثمنا سوف يؤثر فى معادلة الحكم.

ونضيف إلى هذا وجود مملوك كبرقوق أمكنه أن يوطد لهؤلاء مقعد الحكم. فقد استطاع برقوق بدهائه الاجتماعى والسياسى أن ينفذ إلى السلطة فى مصر من نفس الباب الذى نفذ منه فيما بعد محمد على باشا أو محمد على الكبير. الذى يعتبر نقطة تحول فى صياغة الدولة المصرية الحديثة. الذى يبدو أنه أطلع واستفاد من تجربة برقوق الذى اقتسم السلطة فى مصر بعد مصرع السلطان شعبان مع شخص يدعى بركة.

وكان المصريون قد بلغ بهم الإحساس بالظلم والغبن مبلغا عظيما فى ظل هذا الحكم المملوكى الذى كان يعتنى بتثبيت القوة وإقامة العمائر الإسلامية والحربية بغير الالتفات لمصلحة المصريين أهل مصر الحقيقيين الذين لجأوا فى المقابل إلى سلاح النكتة والسخرية فى مواجهة هؤلاء الحكام فيقولون: «برقوق وبركة نصبا على الدنيا شبكة».

حقا صـدق المصريون وإن كان من نصب الشـبكة علـى بر مصر هو برقوق وحده الذى اسـتطاع برغم كل هـذا العداء المصرى تجاهه والذى عبر عن نفسه فى الأزقة والحوارى المصرية أن يتجاوزه.

فمن البداية لم ييأس ورأى فى الورقة المصرية مكسـبا فذهب يعطى للمصريين ويتقرب إليهم كما فعل محمد على باشا بعده بسنوات طويلة فاسـتجاب المصريون لمبادرته العطوف وقرروا الثورة على منافسه بركة لينفرد برقوق بحكم مصر محمولا على الأكتاف والأحلام المصرية.

إلا إن هذا لم يجعله يتجاهل شـرعية الوصول إلى الحكم، فقرر أن يقيـم على العرش صبيا كان لايزال فى الحادية عشـرة من العمر، كان من الناحية الشـرعية يحق له اعتلاء العرش كوسيلة تبلغه غاية ليقتاد بعدها أعوانه الطفل السلطان خارج حدود دار الحكم بالقلعة.

وعلى الجانب الآخر يبـدو أن انفراد برقوق بالحكم لم يكن مقبولا أيضا من المماليك الأتراك الذين أحسـوا بأن البسـاط يسـحب من تحت أقدامهم. وأن عز الدولة المملوكية فى مصر ينسب لهم فى الأساس، وأنه لا يمكن وبأى حال تسليم مقاليد الحكم للجراكسة الذين كانوا يقفون فى أدنى السلم الاجتماعى المملوكى.

ومـع هذا لم تفلح محـاولات الناصرى، وعاد برقـوق ليحقق ما خافه الأتراك من استيلاء على العرش وهبوط فى سلم التقاليد الفروسية المملوكية حيث لم ينجح الجراكسة فى الحفاظ على رباط الأستاذية الذى كان يجمع المماليـك بعضهم ببعض.. فهم ناجحون كمقاتلـين ولكن هذا النجاح يبدو نجاحا وقتيا إذا لم يجد له إطارا يدعمه وقاعدة تسمح له بالامتداد.

ولهذا أصبحت الفروسية المملوكية حالات فردية فمن شاء التزم بها ومن شاء تركها.. فالأمر سيان.

ونعـود إلى ابن خلدون الذى قد خبر فى حياته الكثير من الأحداث السياسية، قبل أن يأتى إلى بر مصر، بدأت بعد تعيينه فى. قلم الكتاب» ثم صعوده السريع ليصبح كبير الأمناء بالديوان فى تونس ثم رحيله إلى فاس ودخوله السجن لعامين، ثم توليه منصب كاتب السر والإنشاء والقضاء ثم ذهابه إلى غرناطة وعمله كسفير يحمل الرسائل السياسية والثقافية المهمة إلى ملك قشتالة وغيرها من المحطات السياسية التى غيرت من حياة ابن خلدون وحياة الآخرين.

أما الاتهـام الذى يواجه به ابن خلدون من أنه رجل عاش لنفسه ونجاحه وأنه بالفعل لم يكن يقصد أن يقدم للبشرية هذا العلم المفيد الذى غير من تاريخ العلوم الإنسانية والذى ظهر تحت اسم «علم الاجتماع» فهو اتهام قد لا يكون من المفيد إطلاقه على هذا الرجل الذى اعتبر داهية عصره السياسية الذى اتقن لعبة السلطان فى كل مكان حل عليه ضيفا.

إذ إن تركيبته الدبلوماسية والعقلية كانت تمنحانه القدرة على شق الصفوف والوقوف فى الصف الأول عند كل سلطان متقدما على أهل كل بلدة حل عليها ضيفا أو ساكنا.

إلا إن من يقرأ السيرة الذاتية للمفكر الكبير ابن خلدون. والكلمة للكاتب مصطفى نبيل فى كتابه «سير ذاتية عربية» يلاحظ أن حياته تنقسم إلى مرحلتين ،المرحلة الأولى قبل وصوله إلى مصر، والمرحلة الثانية بعد وصوله إليها.

فهو يروى فى المرحلة الاولى أصله ونسبه وأساتذته والكتب التى قرأها والوظائف التى شغلها واعتزاله وتأليف سفره العظيم كتاب «العبر» ليصل إلى المرحلة الثانية عندما يروى قصة رحيله إلى مصر عام ٧٨٤هـ - ١٣٨٢م. التى قضى فيها ما تبقى من حياته وخاض فيها تجاربه الجديدة فأضاف ونقح كتاب. العبر» وخط كتاب «التعريف» فى ضيعته بالفيوم.

فلم يستطع ابن خلدون طوال حياته الإفلات من تأثير قوتين متضادتين ولعه بالدرس والعلم من جانب وحبه للمنصب والجاه من جانب آخر، بدأ حياته دارسا ثم انتقل إلى العمل والسياسة ووصل إلى أعلى المناصب ولم يستطع أن يتخلى عن العلم.

فكان يعمل فى تدبير الملك صباحا ويلقى محاضراته عندما يأتى المساء ولا نجد فى سيرته الذاتية ما يذكر انهماكه فى شئون الحكم إلا ويعقبها بذكر حنينه إلى الاعتزال وطلب العلم حتى إنه كرر ذلك سبع مرات وهو يروى سيرته الذاتية.

ربما كان ذلك بسبب شغفه الشديد بمعرفة تفاصيل اللعبة السياسية التى لا يعرفها إلا من كان فى قلبها وجاء تنوع تجاربه من خلال عمله السياسى وطبيعة حياته الصاخبة، والتى استخرج من رحيقها سفره القيم. وربما انتقل إليه الحنين للعلم والسياسة من عائلته التى كانت تتقلب حسب قوله. بين رئاسة سلطانية ورئاسة علمية.(٥٦)

المهـم أن أيامـه المصرية لم تبخل عليه بالكثـير من الخبرات التى لم يحصلها فقط من إلقاء دروس بالأزهر الشـريف والمدرسـة القمحية بالفسـطاط والمدرسة الظاهرية فى بين القصرين بحى الجمالية ومدرسة صرغمتـش التى كانت درة المدارس فى مصر المحروسـة ولكن أيضا من الخبرات السياسية التى قدمتها له هذه الأرض.

ففى أربعة وعشـرين عاما هى كل حيـاة ابن خلدون فى مصر ذهب ابن خلـدون إلى أرض الحجاز ليؤدى فريضة الحج وذهب فى رحلة إلى مدينة القدس ثم ذهب فى رحلة ثالثة وهى رحلته الأشـهر إلى دمشـق حيث التقى تيمورلنك.

والحكايـة أن تيمورلنـك قائـد التتار كان يقف عنـد أبواب مصر يريدهـا ، ويمنعـه عنها قوة برقوق ومماليكه التـى وقفت كحائل دون تنفيذ مخططاته.

وعند موت برقوق شعر تيمورلنك بأن الفرصة الذهبية للاستيلاء على مصر قد حانت. فمن قبل لم يسـتطع التتار التقدم إلى مصر بفضل مقاومة قطـز وبيبرس. كما أن التتـار الأوائل الذين حاولوا من قبل الاسـتيلاء على مصر لم يكونوا من المسـلمين. وانسـحاب قوات المماليك قد جعلت الجميع ينتظر من يقـوم بالمبادرة للدفاع عن مصر ودرء خطر التتار أولا عن الأراضى الدمشقية التى كانت خط الدفاع الأول عن مصر.

وهكذا لم يجد القضاة والفقهاء ملجأ سوى طلب الأمان من تيمورلنك وتدخل ابن خلدون فى الأمر بعد أن فرض عليه الواقع أن يتدخل فتدلى

من الســور بحبل وأبلغ حاشــية تيمورلنك بوجوده فقابله تيمور الذى أطلــق عليه ابن خلــدون لقب «الأثير الأعظم» ليلعــب ابن خلدون لعبة الســلطان والدبلوماســية الناعمة التى تمكنه من الوصول إلى كل غاياته والتى كانت فى الأصل الســبب الرئيسى فى اتهامه بإتقان لعبة النفاق الســلطانى التى يعرفها الكثير ممن عاشــوا فى رحاب بلاط الســلاطين والملوك فى كل عصر.

ويستطيع ابن خلدون أن يقنع تيمورلنك بما يريد ويجد فى احترامه للعلماء أرضية جاهزة، بعــد أن يتأكد أن هذا المحارب يحترم العلماء والفقهــاء حتى إن جنده عندما كانــوا ينهبون مدينة أصفهان الإيرانية نهاهم عن التعرض للفقهاء.

فقد كان هناك نقطة تحسب لتيمور وفى الوقت نفسه تحسب عليه وهــو أنــه جعل وضع الترك متقدمــا على النظم المغوليــة والصينية فى منطقة آسيا الوسطى لأنه كان مسلما، إلا إنه فى الوقت نفسه لم يستطع أن يتخلــص من فكرة الغازى الذى يحطم كل شــىء فــى طريقه ويقتلع الأخضر واليابس فى سبيل تحقيق فكرة السيطرة.

فما أراده لم يكن إلا تحريفا لما فعله من قبل جنكيز خان الذى كان ووفقا للتصور المغولى فاتح العالم ولكن كيف كان هذا العالم وما ثمن هذا الفتح؟

هذا سؤال يجيب عنه كل من يأتى إلى الدنيا وضمن قوانينه الشخصية الاقتتال من أجل مبدأ أو على النقيض الاقتتال من أجل مكسب.

ومـن هذا المنطلـق كان تيمورلنك يرى إنه جاء لهـذه البلاد فاتحا ومخلصا لها من قبضة السـلطان الغاشمة ولهذا لم يكن يلتفت كثيرا إلى آلاف القتلـى الذين كان يتعثر جواده الجامح فى جثثهم. فموت هؤلاء رحمة وتخليص لهم من حياة صعبة قد عاشوها فى ظل السلطان الظالم .

ولاعجب فى هذا فهى فكرة متكررة فى تاريخ الأمم وليست بجديدة وتُستدعى فى كل عصر وزمان ومكان.

فكمـا يقـول ابن خلـدون: «فزدت فى نفسـى كلامـا أخاطبه به وأتلطف بتنظيم أحواله وملكه يا مولانا الأمير لقد شـرفت بحضورى ملـك الأنام، وأحييـت بتواريخى ما مات لهم من الأيـام ورأيت من الملوك فلانا وفلانا وشـهدت مشارق الأرض ومغاربها وخالطت فى كل بقعة أميرها ونائبها ولكن لله المنة، إذ امتد بى زمانى ومنَّ الله على بأن أحيانى حتى رأيت من هو الملك فى الحقيقة والمسـلك شريعة السلطنة علـى الطريقة فإن كان طعام الملـوك يؤكل لدفع التلـف فطعام مولانا الأمير يؤكل لذلك ولى الفخر والشرف فاهتز تيمور عجبا وكاد يرقص طربا وأقبل يوجه الخطاب إليه وعول فى ذلك دون الكل عليه، وسأله عن ملوك الغرب وأخبارها وأيام دولها وآثارها، فقص عليه من ذلك ما خرع عقله وخلب لبه وسلبه».(٥٧)

وبهذا الأسـلوب وجد الجميع مآخذ على ابن خلـدون لهذا التودد تجاه رجل يراه الناس متوحشـا همجيا محطما للقواعد الحضارية التى تحكم اللعبة السياسية.

فمن وجهة النظر الأخلاقية يرى المؤرخون أنه لم يكن لابن خلدون أن يطلق على تيمور لنك لقب «الأثير الأعظم» أو أن يقدم هدايا كالمصحف الشريف وسجادة الصلاة ونسخة من قصيدة البردة للبوصيرى مع بعض الحلويات المصرية.

فتيمور لنك وبأى حال لا يمكن أن يكون سلطان الدنيا ولا هو الشخص الذى ينتظره عالم كابن خلدون لأكثر من أربعين عاما لكى يقابله.

فهل كان يستوجب من ابن خلدون إعلان كل هذا التودد والنفاق بتشبيهه بمبعوث العناية الإلهية لتخليص الشعوب من ظلم حكامها!.

فتيمور قد دخل دمشق برغم كل شىء ونكل بأهلها فى وقت كان ابن خلدون يحكى له عن بلاده وأصل عائلته بالمغرب. وهو ما يجعل البعض يرى أن ما حدث بين تيمور وابن خلدون يحسب للأخير برغم كل شىء لأنه عرف كيف يتعامل مع هذا الهمجى الذى تصور أن الناس سوف تقبله طالما دخل فى حظيرة الإسلام وسوف تغفر له توسعاته التى اعتبرت مذابح وحروبا لم ينج منها شيخ ولا طفل ولا امرأة.

ويستمر ابن خلدون فى الحكى فيقول: فزدت فى نفسى كلاما أخاطبه به، وأتلطف بتنظيم أحواله وملكه وهو يعرف ماذا جرى عندما سأل تيمور العلماء والفقهاء فى حلب قتل منا ومنكم أمس فأى فريقين هم الشهداء؟ قتلانا أم قتلاكم؟ فأجاب أحد علماء حلب هذا سؤال سئل عنه النبى ﷺ وأجاب عندما قدم أعرابى إلى الرسول ﷺ وقال رسول الله إن الرجل يقاتل حمية ويقاتل شجاعة، ويقاتل ليرى مكانه فأينا فى سبيل الله؟

فقال الرسول ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو شهيد.

فقال تيمور: جيد جيد.(٥٨)

المهم أن هذه المهمة قد انتهت كما ينتهى كل شىء فى الحياة سواء كان حلوا أو مرا، وأن الأمر كان كله صعبا حتى إنه فى رحلة العودة تعرض ابن خلدون للسرقة والنهب وهو فى طريقة إلى بر مصر.

والمهم أيضا أن هذا الخطر قد تداركه فرج بن برقوق عندما استطاع أن ينهى العداء بينه وبين تيمور بوصولهما إلى حل مقنع ولكلمة سواء بينهما.

وأما ابن خلدون فقد استمرت حياته المصرية تسير بنعومة فلم تتوقف الحياة به كثيرا عند مواقف فارقة حتى وافته المنية فى مصر فى السادس والعشرين من رمضان عام ٨٠٨هـ. وهو ما وافق السادس عشر من مارس عام ١٤٠٦م ليدفن فى مقبرة الصوفية عند باب النصر بالقاهرة التاريخية.

وبمرور الوقت وصل ابن خلدون إلى نفس الحالة من التفوق فى أواخر أيامه فى مصر مثلما حدث للإمام الشافعى وآخرين غيره.. فلكى تصل إلى درجة مقبولة من فهم الحياة لابد لك أن تلتقى بالمصريين وتعيش فى بر مصر... مجرد فكرة مصرية.



زوابع أمشير

نحن الآن فـى زمن القرن الرابع الهجرى وتحديدا فى عام ٣٤٦هـ وفى مدينة الفسـطاط التى كانت أول مستقر للمسلمين فى مصر عندما وفد إليها وللمرة الأولى أكبر شـعراء العربية أبوالطيب المتنبى لتحقيق طموح لم يقدر عليه فى غير بر مصر.

فهذا ما توقعه وحلم به ولكن لابد أولا قبل أن ندخل فى لب الحكاية أن نفهم أن الأحداث تدور بعد فترة ليسـت بالقصيرة من نشـأة مدينة الفسطاط أول حاضرة للمسلمين على أرض مصر والتى اختارها عمرو بن العاص لتكون أول عاصمة.

فقد انتهت معارك السـيف الفاتحة لتبدأ معارك أخرى للتعلم بين الأدباء والشعراء ودخول شاعر كالمتنبى فى هذا التوقيت بالتأكيد سوف يشعل معارك أدبية وفكرية لم تكن تخطر على بال.

وإن كان دخوله تحت حماية الإخشـيد يثـير هو الآخر العديد من التساؤلات فممن كان المتنبى يخاف؟

أوليس هو الشـاعر الذى تهتز له الدواوين والمجالس وهو صاحب القامة الشـعرية التى لم يسـتطع أحـد من قبله أو بعـده أن يطاولها؟ أوليست أيامه هى أفضل أيام الشعر العربى؟

خواطر وتساؤلات إلا أن الحقيقة تبدو فى الكثير من الأحيان أغرب مـن الخيال. فالمتنبى من حـال الأصل هو ابن بيئة فقـيرة وكان والده يعمل سـقاء في العراق .وكانت كل متعته فـى الحياة تكمن فى التنقل بين مجالس الأدباء والعلماء.

وبرغم بدايته المتمردة على السلطة ورغبته فى العيش مع القرامطة الذيـن اعتبروا مـن الخارجين على سياسـة ونظام الحكم فـى الدولة العباسية فإنه بعد فترة ليست بالبعيدة يصبح الشاعر المادح فى القصور والديار، وهو ليس بالشـيء المسـتغرب فى شخصية المتنبى التى كانت مليئة بالعديد من المتناقضات.

وتتغير حياته المليئة بالأحداث فيذهب إلى الشـام ويسـجنه أمير حمص بسـبب وشـاية اعتبر من أجلها أن حظه مـن أنكد الحظوظ. إلا إنه انطلق بعدها ليدخل بلاط سـيف الدولة الحمداني وليكتب قصيدته الدالية الشهيرة التى يقول فى مطلعها:

لكل امرئ من دهـره مـا تعودا وعادة سيف الدولة الضرب فى العدا

ويقال إن المتنبى بشـعره قـد وصل فى بلاط سـيف الدولة لقدر لم يبلغه شـاعر، وإنه قد وصـل إلى أعلى قمة فى الشـعر العربى جعلته يتجاوز بكلماته كل الأسـقف والحوائـط بلا اكتراث. فالمديح قوى ربما أقوى بكثير من أن نضع له حدودا والمتنبى لا يقف عند حدود شـخص ولا حدود باب.

فلما جاءت ليلة من الليالى أقصته فيها وشـايات القصر كان الرحيل إلى مصر بابا آخر يطرق، وربما ظن البعض أن المتنبى يأتى إلى الفسـطاط ليعارض وينافس الشعراء فى الليالى المقمرة في جلساتهم الأدبية بمكان غير بعيـد عن النيل ليحكم علـى قصائد "الديارات" وهـو الفن الذى أبدعـه المصريون، حيث كان الشـعراء يخرجـون إلى الديار المحيطة بالفسطاط لينشـدوا شـعرا مصريا خالصا وليحكموا على الأيام المصرية والنيـل والقصب والقمح وزمن التحاريق والفيضان وبرودة طوبة وزوابع أمشير أحد أشهر فصول الزراعة المصرية.

إلا أن مجىء المتنبى بكل ما يحمله من اعتداد بنفسه لم يكن للدخول فى منافسـة مع هذا ولا ذاك فكل مـا أراد ولاية يحكمها ويحصل على زعامتها كما حصل على زعامة الشعر، خاصة أن الرياح هادئة فى مصر والحكم رشيد يقدر الشعر والشعراء.

فقد كان أمراء الدولة الإخشيدية فى مصر يحبون الشعر، ومنهم أبو بكر محمد بن طغج الإخشـيد صاحب المعرفة بالعربية والفقه والمؤلفات الكثيرة وأنورجور بن الإخشـيد صديق سيبويه المصرى. وأخيرا كافور الإخشـيدى العبد الذى حكم مصر وأمر بعشرين ألف دينار لتفرق على فقهاء الشافعية.

فهكـذا يتحقق المراد وتأتى الرياح بما تشـتهى السـفن، ويحصل المتنبى على ما يريد، فيذهب إلى كافور مادحا ويقف أمامه ليقول:

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله — فإني أغني منذ حيـــن وتشـــرب
وهبت على مقدار فـــي زماننـــا — ونفسي على مقدار كفيك تطلـــب
إذا لم تنط بـي ضيعـــة أو ولايـــة — فجودك يكسوني وشغلـك يسلـــب

ويقف المتنبى لينتظر الرد والولاية التى تمناها من أعماق قلبه.. إلا أن انتظاره لا يطول فكافور يسمعه قوله ورأيه صريحا..

فكافــور يرفض توليته ولايـــة، لأن المتنبى على ما هو عليه يحدث نفسه بما يحدث ويتصور فى نفسه العزة. فإن أعطاه الولاية التى يحلم بها من يطيقه من الناس؟!!

ويقع كلام كافور حسرة على قلب المتنبى الذى تمنى وتمنى وفتحت لـــه أحلامـــه الأبواب. إلا أن لحظات وربما ســاعات الحســرة لم تلبث أن انقلبــت لإحســاس بأنه غدر به وأهينت كرامتـــه فلا يجد أمامه إلا موهبته لترد عنه الإساءة. فيقف بعيدا عن أبواب كافور ليقول:

لاتشتر العبد إلا والعصا معـــه — إن العبيد لأنجـــاس مناكيـــد
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن — يسيئنى فيه عبد وهو محمــود

ويقول أيضا:

تظن ابتساماتـــى رجـــاء وغبطـــة — وما أنا إلا ضاحــك مـــن رجائيـــا
وتعجبنى رجلاك فى النعل إننـــى — رأيتك ذا نعـل إذا كنـــت حافيـــا
وإنك لا تـــدرى ألونـــك أســـود — من الجهل أم قد صار أبيض صافيـــا؟
ولولا فضول الناس جئتـك مادحـــا — بما كنت فى سرى به لـك هاجيـــا

ويترك المتنبى مصر ساخطا.. فكافور وإن بلغ من العلم ما بلغ فلم يكن يحمل من شيمة العطاء التى اعتقدها المتنبى فيه حتى وإن كانت مائدته تحمل فى اليوم كما يقول المؤرخ أبو المحاسن مائة خروف كبير ومائة خروف صغير ومائة وخمسين إوزة وخمسمائة دجاجة وألف زوج من الحمام ومائة صحن من الحلوى سعة كل صحن عشرة أرطال إلا أن كل هذا لا يغير من طباعه شيئا.

أما مجتمع الفسطاط الذى لم يكترث المتنبى به كثيرا أمام طموحاته فقد رفضه هو الآخر عندما نقده سيبويه المصرى على مرأى من الجميع، فقال إنه لا يحسن اختيار كلمات أشعاره والدليل أنه يقول:

من نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوا له ما من صداقته بد

فكان من الأفضل أن يقول:

من نكد الدنيا على الحر أن يرى   عدوا له ما من مداراته بد

ويخرج المتنبى من مصر ولكن لا شىء يتغير من عاداته ولا من عادات كافور الذى هجاه. فبعد مصر يذهب ليمدح ابن العميد فى بلاد فارس ثم عضد الدولة ثم المعز لدين الله الفاطمى.

ومن جهته لا يتغير كافور الذى لم يحب شاعرا كما أحب الشاعر محمد عاصم الذى كتب فيه مادحا بعد أن ضرب زلزال عظيم مصر.

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها   لكنها رقصت من عدله طربا

صحيح أن محمد عاصم لا يساوى أو يوازى شيئا فى قامة المتنبى ولكن الناس فيما يعشقون مذاهب، والمشكلة أن المتنبى قد نسى أن كل ما على التراب إلى التراب. فهو لم يفهم شيئا من الحياة فى بر مصر، ولم يتصور أن ما يفعله كافور معه مجرد زوابع أمشير التى تواكب أخصب فصول الزراعة المصرية.

فربما لو كان قد انتظر لتغير الحال..ولكن ماذا نفعل للمتنبى الذى لم يفهم مصر ولا برد طوبة وزوابع أمشير؟

ويبقى السؤال الذى يفرض نفسه... وهو ما الذى كان سيحدث لو حصل المتنبى على ولاية كما كان يحلم؟

هل كان سيترك الشعر فى سبيل السياسة وشئون الحكم ليرى عدوا له ما من صداقته بد؟

المهم إن المتنبى بقى شاعرا وإن مصر كانت إحدى تجاربه وإن حياته كانت غريبة وانتهت بحادث غامض كما بدأت.

والمهم أيضا أن حكاية كافور قد انتهت نهاية أخرى، فبعد أن ترك المتنبى مصر جاء الدور على كافور.

فهذا العبد الذى بدأت قصته عندما اشتراه أبو بكر بن طغج الإخشيد من أحد البيوت المصرية وترك له الباب مفتوحا على مصراعيه لكى يصعد فى المناصب وينال ثقته الكاملة حتى استطاع أن يصل إلى سدة الحكم المصرى كانت له قصة عجيبة.

فبعـد أن مـات أبو بكر الإخشـيد الـذى آلت إليه مصـر فى عصر مضطرب حاول سـيف الدولة الحمدانـى أن يأتى إلى البلاد غازيا ولكن كافـور انتصر عليه انتصارا أجبره علـى التراجع مرة أخرى إلى حدود بلاده.

واسـتطاع كافور فيما استطاع أن يقنع الخليفة العباسى فى بغداد - الذى كان قد رضى أسـلافه بوجود دويلات منفـردة داخل كيان الدولة الإسلامية. بوجود الابن أنجور الإخشيدى على رأس مصر تحت رعاية الأسـتاذ كافور لصغر سنه. ليصبح للصغير القدرة والمصداقية على حكم مصر وبلاد الشام ومكة المكرمة والمدينة المنورة.

إلا إن الصغـير لابد له أن يكبر وأن يضيق بسـلطة العبد كافور الذى لا يصح له البقاء على عرش مصر ليمنح ويمنع. فيقرر الخروج إليه فى مواجهة حربية إلا إن عائلته وخاصة أمه تخشـى عليه من الفشـل أمام الرجل الذى أصبح أستاذا وأصبحت الأمور فى مصر ملك يمينه فيقررا التصالح على أن ينفرد الأستاذ بالحكم مقابل أن يحتفظ أنجـور بحياته، وهو ما عجل بموت أنجور الذى لا يعرف إلى الآن إذا مـا كان بالفعل قـد مات كمدا أم أن العبد كافـور قد أعد له هذه النهاية بدس السم فى طعامه.

إلا إن الأمـر لا يخلو من تتابعات... فبموت أنجور لا يخلو كرسـى السلطة من الأخ الأصغر لأنجور وهو أبو الحسن على بن الإخشيد الذى قد أصابه هو الآخر نفـس اللعنة التى أصابت أخاه فأصبح وبفضل مؤامرات

الأســتاذ أســيرا فى قصره مقابل أربعمائة ألف دينار يتقاضاها ســنويا علــى أن يترك له الخيار هذه المــرة فى إنفاق المبلغ كاملا بالطريقة التى يرغبها، وأن يمنح من يمنح ويمنع عمن يمنع.

ويصــاب أبو الحســن بداء الموت الســريع مثل أخيه لأســباب غير مفهومة، وتبدو عائلة الإخشيد الذى كان يوما من أعظم القادة فى الدولة الإســلامية عائلة تتساقط فروعها بطريقة سريعة لدرجة أن شبابها قد يعاجله الموت وهو مازال فى العشــرينيات أو الثلاثينيات من العمر فى أكبر تقدير.

ولا يجد كافور فى نفســه حرجا فى أن يطلب من الخليفة العباسى أن يعينــه واليا على مصــر التى عدمت حكامها، ويســتجيب الخليفة لطلب كافور الذى تحمل كل هذه الأحزان وحده مع أبناء الإخشــيد إلا أن القرامطــة الذين ينظــرون إلى الأمر من طرف خفى لم يكونوا ليفوتوا فرصة الانقضاض على بلاد الشام. كما أنهم وكما يقول د/ حسن إبراهيم حســن فى كتابه «تاريخ الدولة الفاطمية» قــد قبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوى على عشرين ألف جمل كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج فى عام ٣٥٥هـ. كما وقعت بمصر زلازل مروعة وشبت نيران هائلة دمرت ١٧٠٠ منزل من منازل الفســطاط، وأغــار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فى البلاد فسادا فى البلاد الواقعة بين الشلال الأول وأخميم فأحرق بعض المدن وقتل أهلها بالسيف ونهب أموالهم.

وأما أشــد هذه الأهوال فكان انخفاض ماء النيــل. ففى أواخر عهد الدولة الإخشــيدية انخفض النيل انخفاضا دام تسع سنين فى الفترة ما بــين عامى ٣٥١ و٣٦٠هـ وبقى حتى أيام الفاطميين، وقد قاســت البلاد الأمَرين مما أصابها من القحط والوباء واشــتد الغلاء وندر وجود القمح، وفشا الموت بحالة عجز الناس معه عن تكفين الموتى ودفنهم.

وقد ذكــر بعض المؤرخين أن عــدد الموتى بلغ ســتمائة ألف، وأنه كان يلقــى بجثثهم فى النيل لكثرتها. وقد ولد انخفاض النيل اضطراب الأعمال الحكومية وانتشار المجاعات والأوبئة. فنهبت المحاصيل وعم السلب والنهب، حتى إن كافور لم يستطع أن يدفع أرزاق الجند - وكانوا مــن الأتراك والروم. فثاروا عليه، ولعل ذلك مما دفع لينبول فى كتابه تاريخ مصر فى العصور الوسطى

إلى القول بأن «كافور كان بلا شك خادما موفقا أكثر منه قائدا ناجحا».

History of Egypt in the Middle Ages

ويبــدو أن رأى ليبنــول فى هذا الموقع حصيــف، حيث لا يختلف اثنــان على أن كافور قد بدا وخاصة فى نهايــة حياته خادما أكثر منه قائدا ناجحا.

فالكثير من الشــواهد تؤكد ذلك خاصة إنه قد تحول بولائه شــطر المغــرب العربى. فقد ترك حظيرة الدولة العباســية التى أعطته فرصته الكــبرى فى الانفراد بالحكــم لمدة تزيد على العامــين بعد أن رأى قوة الفاطميين، وإن كان التاريخ يذكر أنه اســتمر فعليا ولأكثر من عشرين عاما يحكم مصر وإن كان هذا الحكم متدثرا بحكم الإخشيديين.

فلم يكن يخفى على أحد في بر مصر أو فى أرض من بلاد المسلمين أن الرجل يحكم مصر بمهارة وسلاسة لسنوات طويلة. وأما مبعث هذه المهارة فلأنه لم يستطع فقط أن يتولى حكم مصر ولكنه أيضا نجح فى إدارة الشئون المصرية.

فالرجل لم يسمع فى عهده صوتا عاليا يطالبه بالرحيل بالمنطق المصرى ولم يسمع فى عصره أكثر من نكات مصرية على هذا العبد الذى ملك أرض مصر وتفوق على سادته.

فكما يقول أبو المحاسن فى «النجوم الزاهرة» فقد زاد ملكه على ملك مولاه الإخشيد وكان كثير الخلع والهبات، خبيرا بالسياسة، فطنا ذكيا، جيد العقل داهية. كان يهادن صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر(٥٩).

ولا يعرف إلى الآن كيف أدار كافور الأمر ولا كيف أتقن لعبة السلطان وسط هذه الأمواج الهادرة. فخطر القرامطة الذين يريدون الانقضاض على الشام والمجاعات التى هددت مصر وحالة التحاريق والجدب الشديد الذى أصاب الأرض تقف جميعا فى خندق واحد ضد حكمه .إلا إن الأخطر فى رأيي كان خلع عباءة السلطان العباسى وارتدائه عباءة الحكم الفاطمى.

فقد كانت محاولة المعز لدين الله الفاطمى غزو مصر هى القشة التى قصمت ظهر البعير. وإن كان ما حدث حقا أن كافور قد نجح فى

البداية أن يستدفع هذا الخطر الفاطمى وأن يلاقى عدوه عند الواحات ولكنه بعد ذلك عاد وقبل الدعوات الفاطمية ومحاولات الاسترضاء التى جعلته يدخل فى الحظيرة الفاطمية وبكامل إرادته، ولكن هل كانت هذه إرادته حقا.. نشك فى ذلك ولكنها بصيرة رجل السياسة الحاذق الذى يقدر قوة العدو والصديق.

فبغداد تعجز عن الدفاع عن مصر أمام هجمات البيزنطينيين على الولايات العباسية والفاطميون كقوة وليدة لا تزال على فطرة الحداثة العسكرية وأرض مصر مفتوحة أمام طموحاتهم.

ومصر لا تستطيع أن تدافع عن الدولة العباسية لتتولى الأخيرة الدفاع عن الأراضى المصرية. والمنطق والعقل والسياسة يرجحون كفة الفاطميين الذين لا يعانون الانقسام بل يعانون من فكرة الخوف من عدم التوسع والوصول إلى مصر لتكون درة العرش الفاطمى.

ويرحل كافور ليس فقط عن كرسى الحكم ولكنه يرحل هذه المرة عن الحياة كلها.

وأما مصر فهذا قدرها فهى تصمد أمام أعتى المحن وكأنها «رقصت من عدله طربا» كما قال شاعره المفضل محمد عاصم.. وذهب المتنبى وكافور كل مع حكايته.. ولم يعد المصريون يرقصون طربا من عدل كافور أو من أبيات المتنبى...!



نصف كوب ممتلئ

إلى الآن يذكــر المصريــون أنه منــذ أكثر من أربعين عاما ..شــهدت الأراضى المصرية آخر موسم للفيضان.

وموسم الفيضان في بر مصر كان هو البطل لكل الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فلم يكن نهر النيل قد روضه وجود السد العالى بعد. وكان المشــهد التقليدى هو مشهد الاجتياح لمياه النهر لكل القرى والنجوع المصرية.

فــلا يذكر التاريخ أن أحدا قد اســتطاع أن يقف في وجه هذا النهر الذى ما كان يعلن عن بدء فيضانه حتى يجتاح كل شــىء في طريقه من أسوان إلى القاهرة.

فقد تتغير العصور والوجوه.. ويتغير الحاكم والمحكوم.. ولا تتغير مصر ولا نيلها.

واســتمر هذا الحال ببر مصر حتى وجد النهر وبشــكل فجائى من يروضه ومن يحدد حركته التى كانت ميزان القوة في البلاد.

فالنيل يشــبه إلى حد كبير الحياة المصرية التى كانت تشــهد تتابع أيام اليسر والعسر..وكانت أيضا تشهد أيام الفيضان والتحاريق.

فصحيح أن المصريين كانــوا يخافون من ثورة القادم من جبال القمر ومــن هضبة أثيوبيا التى تشــبه الجنة.. إلا إنهم كانــوا أيضا يخافون

من أيام التحاريق حتى لا يشـهدوا الأراضى المصرية وهى شراقى حين تتكسـر قطع الطين الفخارى وتتيبس وترفـض أن تمنح الزرع والضرع فرصة الاستمرار.

والناس بين فيضان وتحاريق يحاولون أن يسـيروا حياتهم. فإيقاع الحيـاة كان يفرض هـذا التناوب بين القحط والنمـاء، وإن كانت فكرة السـيطرة على النهر فيما يبدو كانت فى عقـل الناس فى بر مصر منذ عهد الفراعنة. فالسـيطرة على هذا الثائر وتطويعه داخل قوالب الحياة كانت مهمة اشتغل بها الكثيرون.

ولهذا شيد القدماء السـدود وأقاموا الترع والقنوات على طول الخط المصرى لنهر النيل. فلم يتيسـر وقتها سوى هذا الحل المنطقى لمواجهة غضبـة النهر. وإن ظلت أيـام التحاريق الطويلة والثقيلة هى مشـكلة بـلا حل قاطع. والدليل على هذا هو عـدد المجاعات وحالات الانهيار الاجتماعى والاقتصادى التى تسـبب فيها اسـتجداء الرزق وانحسـار النهر من القنوات والترع .

وهو ما يجعل معجزة سـيدنا يوسـف عليه السلام لا تكمن فقط فى قدرته على تفسـير رؤيا الملك ولكن فى قدرته على تسيير الحياة فى بر مصر أثناء السـبع العجاف. ففتوى يوسـف هى المحور الأساسى لشد الانتباه إلى دعوته للتوحيد.

وبرغم أن هذا المشـهد الـذى تعودته مصر لسـنوات أصعب من أن تحصى قد اختفـى تقريبا منذ حوالى الأربعين عاما، فهذه القصة تفيد بأنه كان من الممكن أن تنساه مصر قبل هذا بزمن طويل.

والقصة قد حدثت بكل تفاصيلها فى العصر الفاطمى وهو الزمن الذى حدثــت فيه الكثير من المتغيرات في بر مصــر، وبطلها هو العالم الفذ الحســن أبوعلى الحسن ابن الهيثم الذى يتوقف التاريخ أمامه ويتمهل حين يذكر فضل العلماء العرب والمســلمين على تاريخ العلوم فى العالم، والذى كان أحد الثلاثة الأعلام الأفذاذ من علماء النصف الأول من القرن الحادى عشــر الميلادى وهم البيرونى وابن سينا وابن الهيثم. وهو الذى قــال عنه جورج ســارتون وهو أحد أعظم مؤرخى العلــم إنه أعظم عالم فيزيقى مسلم، وأحد كبار العلماء الذين بحثوا فى البصريات فى جميع العصور.

وقــد كان فوق ذلــك فلكيا ورياضيا وطبيبا وله شــروح على مؤلفات أرســطوطاليس وجالينوس والترجمة اللاتينية لكتابه «المناظير» كانت لها أثر عظيم علــى العلم فى الغرب خصوصا على روجير بيكون وكبلر وفيها يتجلى الرقى العظيم الذى وصلت إليه الطرق التجريبية.

ويذكر جوزيف هل فى مؤلفه عن الحضارة الإســلامية قائلا إن ابن الهيثم قد اتجه بأبحاثه إلى دراســة الحجرة المظلمة. وربما كان روجير بيكون أول مــن تمكن من الانتفاع بها، فلابن الهيثم فضل التفريق بين الظل وشبه الظل.

وقال عنه كاجورى فى تاريخ الفيزيقا: كان أول طبيب وصف العين وصفا مســهبا، وقد اســتمد معلوماته فى وصف العــين من مؤلفات فى التشــريح، وكان هو وبعض معاصريه من علمــاء العرب وبعض العلماء

المتأخرين منهم يعارضون رأى إقليدس والأفلاطونيين القائل بإن الإبصار يحدث عن أشـعة تخرج من العـين وكانوا يؤيـدون رأى ديموقريطس وأرسطو القائل بأن السبب هو صدور أشعة من الجسم نفسه.(٦٠)

وقبل أن يأخذنا الحديث عن هذا العالم الذى ضاعت الكثير من أبحاثه وثمار فكره، فلابد أولا أن نتوقف عند فكرته لبناء سـد كبير يقى مصر من ويلات اجتياح النهر لأرضها وزرعها فى زمن الفيضان.

فقصتـه فى مصر تبدأ مع هذه الفكـرة التى جعلته يوطن قدميه فى مصر التى شـهدت سنوات شـبابه وكهولته وشـيخوخته بل وانطفاء شمعة حياته.

فقـد ولد ابـن الهيثم فـى زمن يعتبر مـن أغنى عصـور الحضارة الإسلامية وجنى ثمار التفاعل بين الثقافات. وهو عصر ملىء بالتيارات وكما يحمد له هذا التبادل والانفتاح الحضارى الكبير فهو عصر يشينه كثـرة التيـارات الاجتماعية التـى دخلت فى المجتمعات الإسـلامية كالشـعوبية والأمراض الاجتماعية الأخرى التـى عانى منها المجتمع الذى دخلت فيه كل العناصر والشـعوب والأفكار من كل الأبواب. فمن الطبيعـى أن يدخل من الأبواب الصالح والطـالح، خاصة إذا كانت هذه الأبواب مفتوحة على مصراعيها.

فابن الهيثم شـهد عند أول نشـأته عصرا صاخبـا بجلبة الحركة العلميـة المتدفقـة، والحركـة المذهبيـة فى الديـن، وما سـببته من ديناميكيـة التصـادم بين الفرق المتنابذة، تصادما قد تولد من رواسـب

الحضارات الهامدة التى احتضنتها الحضارة الإسـلامية. فكان أن تمت بينهما اتصالات فى البعدين المكانى والزمانى.(٦١)

وهكـذا كانت البصرة أول موطن لقدم ابن الهيثم الذى احتواه هذا العصر الهـادر الأمواج والذى يذكرنا بما رصده الدكتور طه حسـين عميد الأدب العربى فى رسـالته عن الشـاعر أبى العلاء المعرى الذى ولـد وتربى وعاش فى ظروف مشـابهة.. وهى الظروف التى تجعلنا نتوقف طويلا أمـام فكرة الحضارات التى تضـع دعائمها فى أصعب الظـروف اعتمادا علـى إنجازات مجموعة من البشـر أبوا أن يتركوا الدنيا دون أن يضيفوا إليها.

فقـد كان مـن المنطقى والطبيعى بـل والمتاح فى عصـر ابن الهيثم أن يقرأ العامة والدارسـون علوم الفلسـفة والمنطق والرياضيات والطب والفلك وخاصة بعد أن يسرت حركة الترجمة فى عصره والعصور التى سـبقته حركة العلم والأدب. كمـا لم تكن هناك حدود تقف فى طريق من يريد أن يبدع سـوى بعض النوازع الإنسـانية السلبية المتمثلة فى الحسـد والكيد للآخرين هو ما عرفه ابـن الهيثم منذ اختار أن يغرق نفسه فى بحر العلم الواسع.

فرغـم أنه لم يكن يومـا من طالبى المجد ولا المال إلا إنه لم يسـلم فى عمله بالبصرة ككاتب حسـابات بديـوان البصرة حيث أراد زملاؤه أن يتخلصـوا من مهارتـه العالية التى تسـبب لهم مواجهات ثقيلة مع النفس. فالفاشـل يعتقد فى قرارة نفسه أن من يريد التقدم والنجاح إنما يفعل هذا ليقلل من فرصه فى اعتلاء المناصب.

فلكى ينجح الفاشـل لابد أن يختفى المجتهد. ولهذا ذهبوا إلى أمير البصرة ليخبروه بـأن ابن الهيثم هو أمهر مهندس قصور لكى يزيحوه عن طريقهم.

وهكـذا اتضح لابن الهيثم أن الحياة فى البصرة لا تتسـع لأمثاله، فقرر أن يتجه إلى بغداد ليكسـب عيشـه من الكتب التى كان ينسخها للوراقين. فقد كان كل ما يريد فى هذه الدنيا هو الإخلاص للعلم. ولهذا لم تكن هناك متعة تذكر فى هذا الوطن الجديد سوى الذهاب إلى مكتبة «بيت الحكمة» فى بغداد.

إلا إن شهرته سـبقته ولم يكن بالنسبة لأهل بغداد أكثر من ضيف ثقيـل. فهو مؤلـف كتاب «الهيئة» الذى كان يتحـدث فيه عن الأفلاك والكواكب والذى كان فى رأى أحد خطباء المساجد مدعاة للفسق.

فقد خيل للرجل أن ابن الهيثم بمحاولته كشـف حجب العلم يكون قد وقع فى الشـرك الأكبر ودخل فى دائرة المحظورات الدينية بعد أن تنبأ بالغيب.

ويختار الله تعالى لابن الهيثم أن يرحل عن العراق ليتجه إلى الشـام التـى ينزل فـى ضيافة أحد أمرائهـا المثقفين الذى اعتـبر ابن الهيثم ضيافته بمثابة استراحة المحارب.

فقـد نـزل ضيفا على بيتـه ومكتبته لا على ملكه الـذى لم يرد أن يشـاركه فيه فرفض كل عروض الأمير المثقف بالإبقاء عليه مقابل مال وسلطة وهما أكبر ما يطمح فيه أى إنسان فى هذه الدنيا.

وتبدو تجربة الشـام ثرية في حد ذاتهـا ، فمن خلالها يعرفُ ابن الهيثـم الكثير عن بر مصـر فقد حدثه الأمير عـن مكتبة دار الحكمة بمصر، وما فيها من قراء وفقهاء، ونحاة ولغويين، ومفسرين ومحدثين ومنجمين.

ويسـمع عن مكتبة دار العلم الملحقة بها، وفيها مائة وثمانون ألف كتاب غير مكررة العنوان فى علوم الدنيا : الفلسـفة والمنطق والأخلاق، والطبيعيـات والرياضيات، والفلك والطـب، وعرف أن قيم هذه المكتبة اسمه: أبو الحسن الشابشتي.

وتمنى أن يذهـب إلى مصر يوما ، ويعيش بالقاهرة الفاطمية ما بقى له من العمر، يجلس إلى علمائها ويقرأ فى مكتباتها. ومن يرى؟

قد يلحقه الخليفة الحاكم بأمر الله عضوا بمجلس العلماء بدار العلم فى قاعتها الخضراء.

وأيقن أبو على أنه سيقضى عمره كله آمنا على نفسه وعلمه فى بلاد يحكمها الفاطميون.(٦٢)

مرة أخرى يفكر ابن الهيثم فى الرحيل وكأن التنقل بين البلاد فرض عليه كما كان الحال بالنسبة للإمام الشافعى الذى مازال مسجده يحمل علـى قبته صورة سـفينة كرمز لترحال هذا الإمـام الكبير الذى جاب العالم الإسلامى منذ ميلاده فى غزة وحتى رحيله عن الحياة ودفنه فى أرض مصر المباركة. فمصر وبكل الحسـابات كانت تملك مساحة ثابتة فى عقل الكثير من رجال الفكر والعلم والرحالة فى كل الأزمان.

ولهـــذا لم يكن حديث ابــن الهيثم مع الأمير حــول مصر أكثر من تحســس لأحوال الحياة بها، خاصة أن الفاطميين فى هذا الوقت كانوا مــن محبى العلم الذى كان يعلو صوته على صوت الصراعات والمؤامرات بين فرق الجيش الفاطمى.

أما الحاكم بأمر الله فقد كان قصة فى حد ذاتها. فلا أحد يستطيع أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث من جانبه ولهذا كان وجود ابن الهيثم فى مثل هذه الظروف أشــبه بالمجازفة. إلا إنها لم تكن أيضا معادلة مستحيلة عند ابن الهيثم الذى جاء إلى مصر حاملا فكرا جديدا من أجل مشــكلة قديمة وصعبة فى الوقت نفسه.

فقد أراد ابن الهيثم أن يدخل مصر من باب العلماء. فلم يركن إلى هذا الكــم من الكتب العلمية والاقتراحات والإضــاءات التى قدمها فى العراق والشام والتى كان أبسطها تلخيص ثلاثين كتابا للطبيب جالينوس.

ولم يكن ابن الهيثم من الذين يعيشــون لأنفســهم فقط، بل كان عند اختيــاره للعلم طريقا لا يأنــف أن يكون تلميذا للآخرين ممن ســبقوه أوعاصروه، ولهذا رأى فى تلخيص كتب من الفكر اليونانى مهمة كبيرة لا يثنيــه عنها أحد، ويقال إن أمر ابــن الهيثم قد بلغ الحاكم بأمر الله الذى وجد فيه غايته المنشودة، ويروى القفطى أنه بلغه قول ابن الهيثم الذى يصف فيه مهمته فى ترويض النهر:

لــو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص، فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى.

ويروى القفطى أن الحاكم أرسل إليه أموالا وهدايا رغبة فى الحضور إلى مصـر، ولعـل الحاكم خرج لاستقباله والتقى به خـارج القاهرة، وأكرمه وأمر بإكرام مثواه، ثم اسـتمهله أياما وطالبه بما قال فى أمر النيل، ثم يقول إن ابن الهيثم سـار ومعه جماعة من الصناع المحترفين لأعمـال البناء بأيديهـم وتتبع مجرى النيل وكأنه فى بعثة هندسـية بالمعنى الحديث حتى وصل إلى أسوان.

وتجاوزهـا إلى موضع يقول القفطى إنه يعرف بالجنادل وعاين هذا المـكان من جانبيه، ولكنه لم يجد الأمر متفقا وفكرته الهندسـية التى خطرت له، ففكر وقدر فلم يجد مندوحة من العودة إلى القاهرة وهو فى أشد حالات الخجل والانخذال واعتذر إلى الحاكم.(٦٣)

وبهذا الأسلوب ظن ابن الهيثم أنه استطاع أن يتجاوز هذه العثرة العلمية وأن فكرته عن السد النيلى لم تكن أكثر من طموح لم يستطع تحقيقه.

فالمهم إنه حاول ولكن إمكانيات عصره لم تسعفه. وهو لا يريد أن يخدع نفسـه ولا الآخرين وكان بمقدوره أن يسـتنزف الكثير من الأموال المصرية وأن يعتمد على عامل الزمن الذى يمكن أن يحل كل المشكلات.

فربما ذهب الحاكم بأمر الله وجاء غيره ونسـى موضوع السد.وربما نسى أوتناسى الحاكم بأمر الله هذا الشأن وتركه برمته.

وربمـا توصل ابـن الهيثم إلى حل فى يوم مـن الأيام ولهذا قد يرى البعض أن بعض السياسـة يمكـن أن تصلح الأمر وأن التسـويف علاج للكثير من الأزمات.

إلا إن ابـن الهيثـم اختار أن يواجـه حقيقة فشـله ووضع حديثه مع سـت الملك أخت الحاكـم بأمر الله نصب عينيه فقد رن سـؤالها فى أذنيه.. فإذا كان هذا السد ضرورة وحقيقة ممكنة لماذا لم ينفذه الفراعنة الذين كانوا فى الأصل قد بلغوا قمة المعمار فى كل عصور البشرية.. فهل يفشل من بنى الهرم فى بناء سد يقى البلاد من مصائب الفيضان وويلات التحاريق؟

فقد روعته وأرقته الآثار المصرية الرابضة على شـاطئ النيل والتى لم ير لضخامتها وإتقانها مثيلا. فبالتأكيد فهم هؤلاء المهندسون المهرة كل صغيرة وكبيرة على أرض مصر تصرفوا معها بشـكل لا يعاندون فيه الطبيعة. فهذه خلاصة تجربته التى أدركها عندما شـاهد آثار الأقصر والبر الغربى وجزيرة فيلة ومنطقة الجنادل.

وبالتأكيد أيضا أن فكرته يمكـن أن تتحقق، ولكن أين هذه المعدات الضخمة التى يمكن أن تحقق حلمه الذى لم يبرح الأوراق؟!

فـى النهايـة أعلن ابن الهيثم عن عدم قدرتـه على تنفيذ حلمه من منطق عالم لا يريد أن يجازف بما قدم فى سـنوات عمره السابقة ولا أن يتحمل تبعات فشل ما أراد فى حين كان موقف الحاكم بأمر الله مختلفا. فقد أراد كحاكم أن يجنب بلاده شـر الفيضان وآلام التحاريق وأن ينظر إلى مسـألة الزراعة والنماء نظرة أخرى لا تقوم على حسـابات مفاجآت النيل. ولهذا لم يقبل اعتذار ابن الهيثم واسترد منه أمواله التى أغدقها عليه لتحفيزه على تحقيق مشروعه.

كما أغلق أبواب الجدل حول هذا المشروع وحول اتجاه الموارد المالية لبلاده إلى أشـياء أخرى يمكن أن تكون أكثـر إفادة لمصر. إلا إنه أبدا لم يقبـل اعتذار ابن الهيثم الذى خذله أمام العلماء والمقربين الذين نصحوه من قبل بعدم أخذ حديث ابن الهيثم مأخذ الجد.

واسـتمرت هذه الجفوة بين الرجلين إلى أن تدخلت ست الملك أخت الخليفة بنفسـها ليقرر الحاكم بعدها بإرسـال ابـن الهيثم ليعمل فى وظيفة متواضعة فى الديوان.

إلا إن المشـكلة كانت فى ابن الهيثم نفسـه الـذى لم يقبل بوظيفة متواضعة بديلا عن الدراسـة والإخلاص للعلم. فعندمـا أراد أن يتفرغ لأبحاثه وجد كل الأبواب مغلقة فلم يجد سـبيلا للخروج من هذا المأزق سـوى ادعائه الجنـون، وأراد أن يعلنهـا صريحة فجاء أمـام الناس بحركات غريبـة وأصبح يضحك ويبكى. وقد لفت الأنظار إليه بتعاقب حالات السرور والمرح مع البكاء والحزن، وأصبح معروفا لدى الناس أنه قد أصابه مس من الجنون فرأى الخليفة أن يعزله وحده وأن يداوم عليه حراسة مشددة ليل نهار، وبهذه الطريقة المبتكرة استطاع ابن الهيثم أن يجد نفسه أخيرا حرا طليقا يملك وقته وقد منحه هذا الادعاء بالجنون فرصا ابتكارية أخرى.

فهؤلاء الحراس الذيـن يراقبونه قد أحدثوا خرقا فى الغرفة ليروا تحركاتـه وهو ما منحه فرصة كبيرة صنعتها الصدفة. فاكتشـف فكرة الغرفـة المظلمـة التى صارت فيما بعد أساسـا لفكرة صنـدوق التصوير

الفوتوغرافــى. ورأى الناس أبا على واقفا فى صحن الأزهر وعلى وجهه ضحكة عريضة صامتة ورأوه يسير بين أروقة الجامع الأزهر عاقدا يديه وراء ظهره. ولم يعرفوا أنه يفكر فى ظواهر انعكاس الأشعة وانكسارها وانتشارها فى الأوساط الشفيفة والغليظة.

ورآه الحارســان يوما فوق ســطح بيته فى وقت الظهيرة وقد غرس عــودا رفيعا فى لوح خشــبى ومــد يده بخيط من أعلــى العمود إلى آخر ظــل العصا وهو يكتب ويرســم فــى ورقة. فجزم الحارســان لجهلهما باستحكام جنونه.(٦٤)

ويختفى الحاكم بأمر الله بين ليلة وضحاها ولا يعثر له على أثر. وإن كان اختفاؤه أكد فيما بعد حقيقة موته أو تحديدا قتله، ويندهش الناس فــى بر مصر مما حــدث وتوجه أصابع الاتهام للكثير من الشــخصيات ومنها ست الملك أخت الحاكم بأمر الله التى جاءت بأخيها للحكم ولكنه انقلب عليها. إلا إن لعبة الســلطان ظلت مغلقة محكمة فلم يستطع أحد أن يجزم من بالتحديد قاتل الحاكم ولماذا اختفى بهذا الشــكل ومن وراء هــذا الحادث المدبر القتل أو الاختفاء.. أســئلة كثــيرة احتفظ التاريخ لنفســه بها فى خزانته الخاصة بعد أن فشــل الناس فى إيجاد إجابات سريعة تشفى الصدور.

ولكن المهم بالنســبة لابن الهيثم أن مثل هذا الحادث يعنى انقلابا شديدا فى الأمور وأنه قد خرج من دائرة المظلومين ليعود مرة أخرى إلى طائفة المشغولين بالغد.

ويرفض ابن الهيثم أن يدخل في لعبة السلطان مرة أخرى فهو قد قدم إلى بر مصر عندما اعتقد في قرارة نفسه أنه باستطاعته أن يبني سدا يحمي مصر من أهوال وتعاقب أيام الفيضان والتحاريق.

واستمر في مصر ورغب بها بعد أن وجد أنها المكان الآمن الذى يكفل له الاستمرار في أبحاثه وفتوحاته العلمية.

ولهذا لم يقبل وبأى حال أن يعود إلى البلاط الملكي كعضو بمجلس العلماء بدار العلم وأن يجرى له راتب شهرى كما أرادت ست الملك التي عادت إلى مسرح الأحداث كوصية على ابن أخيها الحاكم الصغير.

واستمر ابن الهيثم في نسخه الكتب للوراقين بالأزهر وتعليم من تيسر له من الصغار وطالبي العلم الذى رفض أن يتقاضى عن تعليمهم الأموال حتى وصل من العمر إلى أربعة وسبعين عاما ووصلت كتبه إلى المائتي كتاب في مختلف التخصصات العلمية.

وقتها كان على الفارس أن يترك كل شيء لمن يأتي من بعده وأن يسلم الروح إلى بارئها في ليلة من ليالي القاهرة التي قد اعتادها وأحبها. فليلة من ليالي بر مصر تعني عمرا بأكمله.. فقد أعطته مصر مثلما أخذت منه.

وليكن حال ابن الهيثم هو حال الكثيرين من أهل البلاد والذين بحثوا عن مرفأ أو لعله استراحة للمحارب فعزت عليهم بلاد الدنيا وأحبتهم مصر واعتبرتهم من أبنائها.

فالمصريون ليســوا هم من ولدوا على أرض مصر وعاشوا حياتهم بها وانتمــت عائلتهــم إليها فى حــدود الجيلين أو الثلاثــة أجيال، ولكن المصريــين حقا هم من أحبوا البلاد وعاشــوا على أرضهــا ووجدوا فيها السند وقت العوز.

فحقيقــة لم يحصــل ابــن الهيثم على حقــه من التكريــم فى عالمنا الإســلامى، إلا إن الرجــل لو عاد إلى الحياة مرة أخــرى فلن يضيره أو تضيف إليه كلمات التكريم، فقد اختار العلم طريقا وكان حقا على أهل بلده المصريين أن يحملوا أفكاره إلى الأجيال التالية وهو أمر أعرف إننا نقصر دائما فى أدائه.... فمتى يفطن المصريون إلى عزهم؟!



مراجع

(١) أكمل الدين إحسان أوغلى، الأتراك فى مصر وتراثهم الثقافى. (أسطنبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الاسلامية. ٢٠٠٦م).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) جي فارجيت، محمد على مؤسس مصر الحديثة.. (القاهرة: المحلس الأعلى للثقافة. المشروع القومى للترجمة ٤٩٢ - ٢٠٠٣م).

(٤) محمد رفعت، الأرمن فى مصر .(القاهرة: دار نوبار للطباعة ١٩٩٥م).

(٥) لطيفة سالم، الحكم المصرى فى الشام (١٨٣١م - ١٨٤١م). (القاهرة: مدبولى. ١٩٩٠م).

(٦) حسين مجيب المصرى، إيران ومصر عبر التاريخ. (القاهرة: الأنجلو مصرية. ١٩٧٢م).

(٧) محمد السعيد عبد المؤمن محمد السعيد إدريس. مختارات إيرانية. صفحات منسية فى العلاقات الثقافية بين مصر وإيران. (القاهرة: الأهرام. ابريل ٢٠٠٤م).

(٨) المصدر نفسه.

(٩) باحثون من مكتبة الإسكندرية، الأسرة السليمية: ذاكرة مصر المعاصرة (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية - ٢٠١٠م).

(١٠) د/ عبد الرؤوف يوسف، سيدة الملك، القاهرة: تاريخها وفنونها وآثارها (القاهرة: مؤسسة الأهرام - ١٩٧٠م).

(١١) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب.. (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية - ١٩٥٨م).
(١٢) المصدر نفسه.
(١٣) عبد الرحمن زكى، مدينة القاهرة فى ألف عام، القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتى.. (الدار المصرية للتأليف والترجمة. ١٩٦٦م).
(١٤) د/ ثروت عكاشة، القيم الجمالية للعمارة الإسلامية.. (القاهرة: دار المعارف - ١٩٨١م).
(١٥) د/ سعيد عاشور، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور.. تاريخ وآثار مصر الاسلامية. (القاهرة: الهيئة العامة للكتاب. ١٩٩٣م).
(١٦) محمد مصطفى نجيب، العمارة العثمانية، القاهرة: تاريخها وفنونها وآثارها (القاهرة: مؤسسة الأهرام - ١٩٧٠م).
(١٧) د/ سعيد عاشور، موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ وآثار مصر الإسلامية.
(١٨) د/ ثروت عكاشة، القيم الجمالية للعمارة الإسلامية.
(١٩) عاصم رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة. (القاهرة: مدبولى - ٢٠٠٣م).
(٢٠) سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون.. (القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الأسلامية. ١٩٧٢م).
(٢١) أحمد بهجت، بحار الحب عند الصوفية .(القاهرة: دار الشروق - ٢٠٠٨م).

(٢٢) عاصم رزق، خانقاوات الصوفية فى مصر (القاهرة: مدبولى - ١٩٩٧م).
(٢٣) المصدر نفسه. (٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) كريستوفر هيرولد، بونابرت في مصر. ترجمة: فؤاد أندراوس(القاهرة: دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - ١٩٦٢م).
(٢٦) د/ ثروت عكاشة، القيم الجمالية للعمارة الإسلامية.
(٢٧) د/ عاصم رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية.
(٢٨) محمد كمال السيد، القاهرة أسماء ومسميات.. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦م).
(٢٩) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها. صفحات من تاريخ مصر.(القاهرة: مكتبة مدبولى - ١٩٩١م).
(٣٠) د/ سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون.
(٣١) المصدر نفسه.
(٣٢) د/ عاصم رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية.
(٣٣) عبد الرحمن الشرقاوى، العز بن عبد السلام سلطان العلماء، شخصيات إسلامية. أئمة الفقه التسعة.. بيروت: دار اقرأ - ١٩٨٣م).
(٣٤) المصدر نفسه. (٣٥) المصدر نفسه.
(٣٦) محمد مصطفى حلمى، ابن الفارض والحب الإلهى.. (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٤٥م).
(٣٧) مولانا جلال الدين الرومى، مثنوى. ترجمة: د/ إبراهيم الدسوقى شتا (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة - ١٩٩٦م).
(٣٨) ليلى الدورى، موقع التصوف الإسلامى. الانترنت.

(٣٩) السيد أحمد خليل، الليث بن سعد فقيه مصر.
(٤٠) محمد زينهم محمد، الليث بن سعد سيره وفضائله. (القاهرة: دار المعارف - ٢٠٠٠م).
(٤١) المصدر نفسه. (٤٢) المصدر نفسه.
(٤٣) د/ عاصم رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية.
(٤٤) أسامة أبو خليل، شرح البردة المباركة للإمام البوصيرى. (القاهرة: مكتبة نهضة مصر - ١٩٨٠م).
(٤٥) تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى، كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية. (القاهرة: الهيئة العام لقصور الثقافة - ١٩٩٩م).
(٤٦) على باش مبارك، الخطط التوفيقية.. القاهرة: مطبعة بولاق. هيئة الكتاب - ١٩٨٦م).
(٤٧) محمد أبوالعمايم، آثار القاهرة الإسلامية فى العصر العثمانى، المجلد الأول: المساجد والمدارس والزوايا.. (اسطنبول: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية. ٢٠٠٣م).
(٤٨) الحسين اليعقوبى، بنو خلدون من أشبيلية إلى تونس، ابن خلدون: البحر الأبيض المتوسط فى القرن الثامن الهجرى. الرابع عشر الميلادى.. (أسبانيا: مؤسسة التراث الأندلسى - ٢٠٠٦م).
(٤٩) المصدر نفسه.
(٥٠) د/ على عبد الواحد وافى، عبد الرحمن بن خلدون: حياته وآثاره ومظاهر عبقريته.. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومى - ١٩٦٠م).

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) أحمد مختار العابدى، المماليك، ابن خلدون: البحر الأبيض المتوسط فى القرن الثامن الهجرى.

(٥٣) المصدر نفسه.

(٥٤) د/ قاسم عبد قاسم، عصر سلاطين المماليك. التاريخ السياسى والاجتماعى.. (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة - ١٩٩٩م).

(٥٥) المصدر نفسه.

(٥٦) مصطفى نبيل، سير ذاتية عربية..(القاهرة: دار الهلال - ١٩٧٢م).

(٥٧) المصدر نفسه.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغربردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.. (القاهرة: دار الكتب - ١٩٤٢م). من كتاب د/ حسن إبراهيم حسن تاريخ الدولة الفاطمية.

(٦٠) أحمد سعيد الدمرداش. الحسن بن الهيثم، أعلام العرب.. (القاهرة: دار الكاتب العربى للطباعة والنشر - ١٩٦٩م).

(٦١) المصدر نفسه.

(٦٢) سليمان فياض، ابن الهيثم، عالم البصريات، علماء العرب.. (القاهرة: مؤسسة الأهرام. مركز الترجمة والنشر - ١٩٨٥م).

(٦٣) المصدر نفسه. (٦٤) المصدر نفسه.

فهرس الكتاب



منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
القاهرة	الإدارة والمكتبات	٩ شارع كامل صدقي بالفجالة	٢٥٩٠٥٩٤٨	٢٥٩٠١٧٦٦
	مكتبة ثروت	٢٧ شارع عبد الخالق ثروت	٢٣٩٣٦١٢٣	٢٣٩٣٦١٢٣
	مكتبة السيدة زينب	ميدان السيدة زينب ناصية شارع قدرى	٢٣٩١٣٨١٣	
	مكتبة شبرا	١٠٥ شارع شبرا أمام مدرسة التوفيقية	٢٢٠٢٣٨٦٦	
	مكتبة ماسبيرو	خلف دار المعارف ومجلة أكتوبر	٢٥٧٧٠٧٧	
الإسكندرية	مكتبة سعد زغلول	٤٢ شارع سعد زغلول	٠٣/٤٨٠٧٦٤٤ ٠٣/٤٨٠١٣٤٥	٠٣/٤٨٠٧٧٣٨
	مكتبة التحرير	٢ ميدان التحرير بالمنشية	٠٣/ ٤٨٧٩٩٥٣	
	مكتبة محرم بك	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	جهاز المعارض بالإسكندرية	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
طنطا	المكتبة	خلف مسرح البلدية شارع القنطرة	٠٤٠/٣٣٣٢٣٥١	
المنصورة	المكتبة	شارع الجمهورية بجوار إدارة جامعة المنصورة	٠٥٠/ ٢٣٩٦٢٨٧	
الإسماعيلية	المكتبة	بجوار نادى الشجرة – شارع شبين الكوم	٠٦٤/ ٣٣٤٦١٩٢	
الزقازيق	مكتبة المنتزه	ميدان المنتزه – بالزقازيق	٠٥٥/ ٢٣٠٥٠٢٢	
	مكتبة عرابى	ميدان أحمد عرابى سابقا	٠٥٥/ ٢٣٦٥٠٢٢	

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
العريش	المكتبة	شارع الجيش أمام قسم العريش	٠٦٨/ ٣٣٦١٨٩٠	
السويس	المكتبة	سوق فيصل السياحي- حي فيصل	٠٦٢/ ٣٦٧٢٩٩٦	
أسيوط	أسيوط	شارع جلال الدين السيوطي	٠٨٨/ ٢٣٣٤٥٠٤	
	منطقة أسيوط الجديدة	عمارة الأوقاف رقم ٢ ش سعد زغلول	٠٨٨/ ٢٣٣٠٠٠٨	
سوهاج	الإدارة العامة والحسابات	خلف الساحة الشعبية بجوار قصر الثقافة	٠٩٣/ ٢٣٢٤٣٤٧	
قنا	الإدارة والمكتبة	شارع الجميل	٠٩٦/ ٥٣٢٣٣٣٠	
أسوان	الإدارة والمكتبة	السوق السياحي	٠٩٧/ ٢٣٠٣٨٣١	

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٩٦ جنيهًا.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ١٢٠ دولارا أمريكيا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدا أو بشيكات.

بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة